أسطورة الوَعِل في الشِّعْرِ الجاهلِيّ: دراسة في ضَوْء الميثولوجيا

د. حمود الدغيشي*

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٢٠/٨/١٨م. تاريخ قبول البحث: ٢٠٢٠/١٢/١٤م.

ملخص

يناقش البحث مكانة حيوان الوعِل عند الأمم القديمة عامة، والعرب خاصة؛ حيث نظر الإنسان القديم إلى الجبال التي تصعد إليها الوعول بهالةٍ من التقديس؛ حيث تسكن آلهته التي تهبه البركة، فاعتقد الإنسان القديم بالوَعِل، بصفتِه رمزًا من رموز المطر والخِصب، وأفضلَ قربان للآلهة في معابد جنوب الجزيرة العربية خاصة، إلى جانب شكل قرونه الملتوية التي تشبه تدوير الهلال والقمر، فكان الرمز الحيواني المقدَّس للإله (القمر)، ورمزًا مقدَّساً اللإله (عثتر) إله المطر والخِصب، فضلًا عن أهمية الوَعل في البحث عن المناطق المطيرة ذات العشب الأخضر، كما ارتبط اسم الوعل بالصيد المُقدَّس. وتجسّدت تلك الأفكار العَقِدية في الشِّعر الجاهلي؛ من حيث منعة الوعل بالجبال، ونزوله أثناء المطر، وعلاقته بالأنثى؛ لمَا يرمز إليه من معاني الفحولة والخصوبة. وكانت فكرة موت الوَعِل عند الإنسان الجاهلي صادمة ومربكة؛ إذ إنَّ في موتِ الوَعِل موتاً اللطبيعة والخِصب؛ من هنا كان حضورُ الصيّاد والوَعِل مع فكرة موت الإنسان في الرثاء تتكرر كثيرًا في الشِّعر الجاهلي.

* جامعة التقنية والعلوم التطبيقية، كلية التربية بالرستاق، سلطنة عمان.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة. الكرك، الأردن.

The Legend of the Ibex in Pre-Islamic Poetry: A Mythological Study

Dr. Hmoud Al-Dighaishi

Abstract

The paper discusses the status of the ibex among ancient nations generally, and the Arab nation in particular. The ancient man looked at the mountains which the ibexes climb to it with holiness; where his Gods live, which gives him the blessing. So, the ancient man believed in the ibex, as a symbol of rain and fertility, and the best eucharist in the temples of southern Arabia in particular, in addition to the shape of its twisted horns that resemble the rotation of the crescent and the moon, so it was sacred animal symbol of God (the moon), and sacred symbol of the God (Athtar), the God of rain and fertility, as well as the importance of the ibex in the search for rainy areas and pasture, and the name of ibex was associated with sacred hunting. These ideological ideas embodied in pre-Islamic poetry; where the ibex takes refuge in themountain, and goes down during the rain, and relationship with the female; what is symbolizes to virility. The idea of the ibex death among pre-Islamic people was shocking and confusing. Because Nature dies when the ibex dies, so because of that we find the hunter and the ibex with the idea of a person dying in lamentation poetry was frequently repeated.

المقدمة:

تعدَّدت النظريات التي حاولت تفسير الأسطورة عند الإنسان القديم، وتقديم وجهات نظر علمية في ممارسة الإنسان القديم طقوسَه؛ بوصف الممارسة عاملًا فِعليًّا يقوم بتثبيت العامل النظري (الأسطورة) على مراحل التاريخ.(١)

لقد اسْتُمِدَّت الأسطورةُ من الطقس، وحين يتراكم غبار الزمن على طقسٍ ما، ويفقد الاتصال بمُؤسِّسِيه، يصبح ذلك الطقس منزوع المعنى والدلالة، فيأتي دورُ الأسطورة لتقدِّم تفسيرًا له، ومسوِّغًا هذه الممارسةَ الطقسية المشدودة إلى عمق التاريخ.(٢) وهو ما قال به "سميث" حين رأى أنَّ الأسطورة قيمتُها ثانوية؛ فهي تقوم بتفسير الطقس، وهي في كل الحالات تستقي من الطقس، لا العكس. فالطقس ثابت، أما الأسطورة فمتغيّرة، كما أنَّ الطقس إلزاميّ، في حين أنَّ الإيمان بالأسطورة يعتمد على اختيار المُتَعبِّد.(٣)

والأسطورة _ في جانب آخر _ لا تعبِّر عن نفسها كثيرًا في أفكارٍ ومعان محدَّدة مثلما تعبِّر عن نفسها في الأفعال ... فالطقس عنصر عميق باق في حياة الناس الدينية أكثر من الأسطورة.(٤) وإنَّ هذه البقايا والمخلفات الثقافية في المعتقدات والعادات والتقاليد التي تتشابه عند الشعوب الحديثة _ كما يرى تايلر و فريزر _ تُعَدُّ آثارًا للماضي الثقافي، وتعود جميعها إلى "وحدة الأصل"، وإنَّ الإنسان البدائيّ (القديم) أضفى صفة الحياة على ظواهر الطبيعة.(٥) ويرى "كلود ريفيير" أنه يبدو من الوهلة الأولى أنّ "الإحيائية" التي ذهب إليها "تايلر و فريزر" لم تجئ بأكثر من تعريف هزيل للدين في أدنى صوره، إلا أنّ هذا التعريف يبدو كافيًا من الناحية العملية. فما دُمْنا قد عثرنا على الجذر، فمن السهل

(١) للاطلاع على النظريات ومدارسها المختلفة، انظر: عبد الفتاح محمد أحمد، المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي، ط١، دار المناهل، بيروت ١٩٨٧م، (الفصل الأول ص ١٣ – ٨٨).

(٢) انظر: فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، ط١٢، منشورات دار علاء الدين، دمشق ٢٠٠٠م، ص١٥.

(٣) سميث، روبرتسن، محاضرات في ديانة الساميين، ترجمة، عبد الوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة، مصر ١٩٩٧م، ص١٨.

(٤) كاسيرر، إرنست، الدولة والأسطورة، ترجمة، أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥م، ص ٤٣. يقول كاسيرر: لم نصادف تاريخيًّا أيَّة حضارة كبيرة لم تخضع لجوانبَ أسطورية، ولم تتشبَّع بها. ص١٩.

(٥) انظر: المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي، ص ٣٨– ٣٩.

معرفة كيف انبثقت الفروع ... فالمذهب الإحيائي فلسفة منتشرة في سائر البقاع، يمثّل الإيمان فيها الناحية النظرية، كما تمثّل العبادة الناحية العملية.(١)

لقد شَدَّ الوجودُ بمظاهره المتعددة، وظواهره المختلفة، الإنسانَ القديم بالدهشة، والقلقِ والخوف، ولم يكن شيءٌ أثقل على الإنسان القديم من القلق على وجودِه من مجهولٍ لا يستطيعُ أنْ يَسْتَبِينَ ملامحَه، أو يَتعرَّفَ مصدرَه، وقد حاولَ البحثَ عن آليّةٍ يُوقِفُ بها نزيف القلق، ويُبَدِّد بها هاجس الخوف، فقادَهُ تفكيرُه، في ظلّ البحث عن توازنات فكرية ونفسية لِما يجري حوله، إلى قُوى عُليا، وعوالِمَ خفيّة، تتحكّم في مصائره، فدَفَعَهُ خوفُه إلى التواصل معها بإشاراته البدئيّة في الكهوف، والصخور، وعلى قمم الجبال؛ اتّقاءَ غضبِها، وجَلْب استرضائها، وأقامَ لها الطقوسَ؛ لِتَتَنَزَّلَ عليه بركاتُها بالسكينة والاطمئنان، والخير والخِصْب.(٢)

فكانت الأمكنة العلوية تتّخذ رهبة في النفوس، ونظرت إليها الشعوب من خلال معتقداتها بمركزية الاتصال بين الأرض والسماء، وشكَّلتْ هذه المراكز الأرضية نماذج من المراكز السماوية.(٣) فالجبل المقدَّس _ حيث يجري الاتصال بين السماء والأرض _ يوجد في مركز العالم. وتشير المعتقدات الهندية إلى أنَّ جبل "ميرو" ينتصب وسط العالم. وعرف سكان "الأورال ألتاي" جبل "سوميرو". وفي المعتقدات الإيرانية هناك على الأرض الجبلُ المقدَّس "هاربير زاين" (إيلبورز) وهو على اتّصال مع السماء. وكان السكّان البوذيون المقيمون في "لاوس" وشمال "سيام"، يعتقدون أنَّ جبل "زينالو" يقع في مركز العالم.(٤) وفي بلاد الرافدين اعتقد الإنسان القديم أنَّ "جبل البلدان" يعمل على الجمع بين أطراف العالم بعضها ببعض. وقد كان معبد الإله "مردوخ" في بابل المُسمَّى " الإيزاكيل Esagila" تناطح ذروته السحاب.(٥) ويتجسّد الإله "إنليل" في الأساطير السومرية في الجبل، حيث تقول الأسطورة السومرية: "مليكك هو الجبل العظيم الأب "إنليل".(٦) وكان الإله إنليل يُشبَّه بالوعل في نزوله من

(١) ريفيير، كلود، الأنثربولوجيا الاجتماعية للأديان، ترجمة، أسامة نبيل، ط١، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠١٥م، ص٢٨.

(٢) يتساءل "ريفيير" في كتابه: الأنثروبولوجيا الاجتماعية للأديان: هل المجهول الغامض سابق على فكرة الإله؟ وهل الدّين نشأ من تجربة الأحلام أم من تجربة الخوف من ظواهر الطبيعة الغامضة؟ ص٣٣. ويرى كاسيرر أنَّ الإنسان القديم لم يكن قلقه من الأشياء ذاتِها، ولكن من آرائه فيها، وخيالاته عنها. انظر: المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي، ص٦٣_٦٤.

(٣) إلياد، ميرسيا، أسطورة العود الأبدي، ترجمة، حسيب كاسوحة، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٠م، ص١٥.

(٤) انظر: إلياد، ميرسيا، أسطورة العود الأبدي، ص٢٣-٢٥.

(٥) بارندر، جفري، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة، إمام عبد الفتاح إمام، ط٢، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٦م، ص٥١.

(٦) السوّاح، مغامرة العقل الأولى، ص٤٣.

الجبلِ، مقرِّ الآلهة.(١) وكلَّمَ موسى ربَّه من جبل سِيناء.(٢) وكان النبيّ محمد يتعبّد في غار حراء في جبل من جبال مكّة.(٣) فكان يُنظَر إلى الجبل الذي تسكنه الوعول على أنه نقطة اتّصال بالسماء والآلهة صانعة المطر والخِصب، ولربّما اعتقد الإنسان القديم في الجزيرة العربية بالدور الذي يقوم به الوَعِل مقام الآلهة في استنزال المطر، وإخصاب الأرض. فعلى الجبال كانت تُمارَس طقوس الأضاحي للآلهة؛ لاستنزال المطر، وممّا رُوِي عن عرب الجاهلية أنهم كانوا إذا تتابعت عليهم الأزمات وركَد عليهم البلاء، واشتدّ الجَدْب، واحتاجوا إلى الاستمطار، اجتمعوا وجَمَعوا ما قَدَرُوا عليه من البَقَر، ثمَّ عَقَدوا في أذنابِها وبينَ عراقيبها، السَّلَع والعُشَر، ثمَّ صعدوا بها في جبلٍ وعْرٍ، وأشْعَلوا فيها النِّيْران، وضَجُّوا بالدُّعاء والتّضرُّع. فكانوا يرَوْن أنّ ذلك من أسباب السُّقْيا.(٤)

إنَّ كثيرًا من المعتقدات والممارسات التي ظلت حاضرة حتى عهد قريب، والتي يبدو بعضها _ حتى يومنا الراهن _ حاضرًا في العادات والتقاليد، والمظاهر الاجتماعية، والفولكلور الشعبي، هي من مخلَّفات الثقافة الأولى، تعود إلى تلك الجذور الأولى حين كان الإنسان القديم يحاول أن يعيش متوازنات الخوف والرجاء، الشّكّ واليقين، القحط والخِصْب، وكان الخارج بمظاهره الجاثمة، وظواهره المتقلِّبة _ التي تتحكّم فيها قُوى عليا، كما يعتقد هو– يدفعه دفعًا إلى الاتحاد معه، والانصهار فيه بممارسات طقوسية تربط الخارج بالداخل، وتُوحِّد الجسد بالروح. وكثيرٌ من تلك المعتقدات والممارسات الطقوسية كانت تتعلق بالحيوان، وتحكي الرسوماتُ والنقوش مظاهر التقديس التي حظِيَ بها هذا الكائن الحيواني في التاريخ القديم، واستمرّت تلك المظاهر في المعتقد الشعبي، والفولكلور حتى يومنا

(١) قاسم الشواف، ديوان الأساطير، ط١، دار الساقي، بيروت ١٩٩٦م، ج٢، ص١٠٠.

(٢) الكتاب المقدَّس، ط٦، دار الكتاب المقدَّس، القاهرة ١٩٩٩م، العهد القديم، سِفر الخُرُوج، ٣/١٩.

(٣) الزبيدي، أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي (هـ ٨٩٣ / ١٤٨٨م): مختصر صحيح البخاري المسمّى التجريد الصريح (مختصر الزبيدي)، تحقيق، مصطفى ديب البغا، ط٧، دار اليمامة، دمشق ١٩٩٩م، كتاب بدء الوحي، رقم ٣، ص٤.

(٤) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (هـ ٢٥٥/ ٨٦٨م): الحيوان، تحقيق، عبد السلام هارون، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت١٩٦٩م، ج٤، ص٤٦٦. وانظر: النويري، شهاب الدين بن أحمد بن عبد الوهاب (هـ٧٣٣/ ١٣٣٢م): نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب، مصر (د.ت)، ج١، ص١١٠. والقلقشندي، أحمد بن علي (هـ٨٢١ / ١٤١٨م): صُبْح الأعشى في صناعة الإنشا، شرح، محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت١٩٨٧م، ج١، ص٤٦٦. السلع والعُشَر: ضربان من الشّجر، كان العرب يأخذون حطبهما للغرض الذي ذكره الجاحظ.

هذا، بعد أنْ تشظَّت الأسطورةُ عبر مراحل التاريخ[١] فتصبغ الثقافةُ الجديدة الأسطورةَ بصباغ البيئة التي أُعِيدَ فيها نسجُها، وقد تُلبِسها ثوبًا محليًّا مميزًا، إلا أنَّه من المستبعَد أنْ تمسّ مضمونها الأصيل.[٢]

يذهب "السوَّاح" إلى أنَّ معظم ما يستعمله الإنسان ويفيد منه لحياته وحضارته، إنْ هو إلا نتاج نموذج بدئي مقدّس صنعته الآلهة بيدها، أو أوحت به، وأنَّ معظم ما يقوم به الإنسان ويمارسه في حياته، ما هو إلا تقليد أوَّلي قامت به الآلهة؛ لذا فإنَّ ميثولوجيا الأصول تغدو أداةَ كشف ومعرفة وتعليل، من جهة، ومن جهة أخرى تثبيتًا للنماذج البدئيّة لمعظم النشاطات المهمَّة في حياة الإنسان والمجتمع.[٣]

فالإنسان فانٍ؛ لأنَّ شيئًا قد حدث في ذلك الزمان. فلو أنَّ هذا الشيء لم يحدث، لما كان الإنسانُ فانيًا، ولأَمْكَنَهُ أنْ يُوجَدَ أبدًا كالحجارة، أو أنْ يُبدِّلَ جلده دوريًّا كالأفعى؛ وبالتالي أنْ يُجدِّدَ حياته، وأنْ يرجع عُودُه على بدئه. وأسطورة نشأة الموت تروي ما قد حدث في ذلك الزمان، وفيما هي تروي ما قد حدث تفسِّر لماذا أصبح الإنسانُ فانيًا.[٤]

الوَعِل في الرسومات والنقوش الأثريّة

ظهر الحيوانُ بأجناسه المتعدّدة في رسوم الحضارات القديمة ونقوشها، وأساطيرها كائنًا مُقدَّسًا يُتَعَبَّدُ به، وفي جبال الجزيرة العربية وصخورها حظيت رسوماتُ الحيوان ونقوشه بنصيب وافر؛ منها

(١) هناك دراسات علمية كثيرة تربط بين الممارسات في تراث الأمم غير المادي الذي تمارسه الشعوب في عصرنا الحاضر وأساطير الشعوب القديمة، حيثُ تعود هذه الممارسات إلى أصول ميثولوجية، على سبيل المثال، تُخَصِّص مجلة الثقافة الشعبية التي تصدر في مملكة البحرين أعدادَها للثقافة الشعبية والطقوس التي ما زالت تُمارسُها الشّعوب في الوقت الراهن، وهناك دراسات في الأساطير والطقوس التي تتعلق بالحيوان، منها دراسات: عبد الكريم بركة، طقوس الاحتفال بالمناسبات والأعياد بشمال إفريقيا، العدد ١٩، السنة ٥، خريف ٢٠١٢م، ص ص ٩١ – ١٠٣. وأشرف أيوب معوض، طقوس الخصوبة في المجتمع المصري، العدد ٢٨، السنة ٨، شتاء ٢٠١٥م، ص ص ٩٠–١٠٧. ومختار رحاب، رمزية المرأة في الثقافة الشعبية الجزائرية، العدد ٣٣، السنة ٩، ربيع ٢٠١٦م، ص ص ٤٠ – ٥٩.

(٢) الجوزو، مصطفى، من الأساطير العربية والخرافات، ط٢، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٠م، ص١٣.

(٣) مغامرة العقل الأولى، ص٢٩.

(٤) إلياد، ميرسيا، مظاهر الأسطورة، ترجمة، نهاد خياطة، ط١، دار كنعان، دمشق ١٩٩١م. ص١٥.

رسومات الثور، والخيل، والجمال، والوُعول ... .[١] وقد قدَّسَ العربُ الحيوانات، وجعلوا لها أصنامًا؛ منها "نسر" على صورة الطائر النسر، و "يغوث" على هيئة الأسد، و "يعوق" على صورة الفرس.[٢] وكان أنْ جعلوا لهذه الأصنام وظيفة رئيسة في حياتهم " ... نعبدُها، فنستمطِرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا".[٣] وقد مثَّلت هذه الأصنام معبوداتهم الكونية؛ من شمس ونجوم وغيرها، واستمدّوا هذه الصُّوَر من "العالم الميثولوجي" عالم الكواكب على النحو الذي تصوَّروه وطبعوه في أفهامهم، وما كان يقابله في عالمهم المادّي من حيوان، ونبات، وطير، .. .[٤]

لقد دلّت الرسوم الصخرية والنقوش وفنون النحت على اهتمام الإنسان القديم في جنوب الجزيرة العربية وشمالها بحيوان الوعل (Capra Ibex) فأظهرت الرسومُ الصخرية التي تعود إلى عصور ما

(١) انظر– على سبيل المثال – حولية الآثار "أطلال" التي تصدرها المملكة العربية السعودية في دراسات: دانيال بوتس، ثاج في ضوء الأبحاث الحديثة، ق٢، ع٧، ١٩٨٣م. وخالد عبد العزيز الدايل، دومة الجندل، ق١، ع١٠، ١٩٨٦م. وحامد إبراهيم أبو درك، حفرية موقع الصناعية، ق٢، ع١٣، ١٩٩٠م. وانظر الدراسات الأسطورية عن بعض الحيوانات في الجزيرة العربية: أبو سويلم، أنور: المطر في الشعر الجاهلي، ط١، دار عمّار، الأردن، ١٩٨٧م. الفصل الرابع " قصة الثور الوحشي ودلالاتها الرمزية في الشعر الجاهلي ". والإبل في الشّعر الجاهلي، ط١، دار العلوم، الرياض ١٩٨٣م. وانظر: الدغيشي، حمود، الخيل في الشعر الجاهلي، ط١، دار جرير، الأردن ٢٠٠٧م. والنّسر في الشعر الجاهلي، مج٣٩، حوليات آداب عين شمس، القاهرة. (إبريل – يونيو ٢٠١١م). ص ص ٩٩ _ ١١٧. والنّاقة في الشعر الجاهلي، مج٤٠، حوليات آداب عين شمس، القاهرة. (يوليو – سبتمبر ٢٠١٢م). ص ص ١٦٧ _ ١٨٢. و الأسد في الشعر الجاهلي، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، الأردن، جامعة مؤتة، مج١٢، العدد٢، ٢٠١٦م، ص ١٣–٣٢.

(٢) انظر: الكلبي، هشام بن محمد السائب (٢٠٦هـ / ٨٢١م): الأصنام، تحقيق، أحمد زكي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ص٧ _ ٨. والطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن (القرن السادس الهجري): مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق، هاشم الرسولي المحلّاتي، وفضل الله اليزدي الطباطبائي، ج٩، دار المعرفة، بيروت، ص٥٤٨.

(٣) انظر: الكلبي، ص٨. واليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب (٢٩٢هـ / ٩٠٤م): تاريخ اليعقوبي، ط٢، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٢م، ص٢١٧. والسهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله بن أحمد (٥٨١هـ / ١١٨٥م): الرّوض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠٠م، ج١، ص٢١٠.

(٤) انظر: الدغيشي، حمود، الخيل في الشعر الجاهلي، ص٥٤. وإبراهيم عبد الرحمن، التفسير الأسطوري للشعر الجاهلي، م١، ع٣، مجلة فصول، القاهرة ١٩٨١م. ص١٣٤.

قبل التاريخ مناظرَ صيد الوعل، ومناظرَ في حالة بحث الوعول عن الرعي، كما أظهرت مناظر احتفال الصيادين بالصيد في مشهد رقص.(١)

وقد تعددت رسوم الوعل الصخرية في شمال الجزيرة العربية، في الأودية والجبال والسهول في شمال منطقة المدينة المنورة.(٢)

ومن الرسوم الصخرية التي وُجِدت في جنوب غرب السعودية أشكال تخطيطية لـ تَيْس الجبل قد ترجع إلى عصر بعد البلايستوسين.(٣)

كما وُجِد الوعل مرسومًا في أحدَ عشرَ منظرًا من الرسوم الصخرية في وادي (ضم) بمنطقة تبوك، شمال السعودية، وقد وُجِد كذلك مرسومًا مع مناظر طقوسيّة، وهو ما يدلّ على تقديس الوعل عن سائر الحيوانات.(٤)

ووُجِدت رسوم الوَعل في مناطق عدّة في الجزيرة العربية تنتمي إلى فترة العصر الحجري الحديث، ووعول بقرون طويلة ومعكوفة، ورسوم تنتمي إلى فترة العصر الحجري النحاسي، ورسوم للوَعِل أيضًا بقَرنٍ واحد وقَرْنَيْن، وبقرون ملتوية، كما عُثِر على منظر صَيْد الوَعِل بالرّمح تعود إلى العصر الحديدي.(٥)

---

(١) انظر دراسة: طعيمان، علي بن مبارك صالح، مصائد الوعول في مدينة صرواح القديمة وما حولها (دراسة أثرية معمارية)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية السياحة والآثار، جامعة الملك سعود ٢٠١٤م، في الفصل الخاص بـ (الوعل في الفنون العربية الجنوبية) ص٥٦ –٩٢.

(٢) السناني، رحمة بنت عواد، دراسة وصفية تحليلية لمجموعة من الرسوم الصخرية في منطقة المدينة المنورة، مجلة دراسات في علم الآثار والتراث، الرياض، ع٤، ٢٠١٣م، ص٣٢.

(٣) تقرير مبدئي عن مسح مناطق التعدين القديمة بجنوب غرب المملكة العربية السعودية (الموسم الثالث)، أطلال، حولية الآثار العربية السعودية، الرياض، ق٢، ع٨، ١٩٨٤م، ص١١٩.

(٤) خان، مجيد، الرسوم الصخرية لما قبل التاريخ في شمال المملكة العربية السعودية، رسالة دكتوراه منشورة، جامعة ساوثمبتون، بريطانيا، الرياض، وزارة المعارف، الإدارة العامة للآثار والمتاحف ١٩٩٣م، ص١٤١.

(٥) انظر: الأطلال، تقارير المسح العام، تقرير مبدئي عن مسح الرسوم والنقوش الصخرية، حولية الآثار العربية السعودية، الرياض، ق٢، ع١٣، ١٩٩٠م، ص٤٩_٥١. وانظر أيضًا الرسوم الصخرية في منطقة ظهران الجنوب: رسومات الوَعِل، ورسومات الوَعِل بقرون مستقيمة، ومنظر صيد الوعول عن طريق الرّماح، ومنظر صيد الوعول عن طريق الكلاب: عبد الرحمن كباوي وآخرون، تقرير عن الرسوم والنقوش الصخرية جنوب غرب المملكة، الموسم السابع ١٩٩٢م، أطلال، حولية الآثار العربية السعودية، الرياض، ق٢، ع١٥، ٢٠٠٠م، ص٩٩_١٠٦.

وأظهرت بعض الزخارف في المباخر اليمنية القديمة صورة رأس الوعل، وكان يكتب اسم مقدِّم هذه المبخرة (المجمرة) إذ كانت تُقدَّم كقربان إلى الإله المعبود في المعبد.(١) ومن القطع التي عُثِر عليها، وهي تعود إلى حضارة سبأ، مصباحٌ من البرونز ينتهي مقعده بجسم إيَّل يقفز.(٢) كما تُظهِر بعض المشاهد الصخرية من ظفار في جنوب عُمان، أنشطة صيد الوَعل.(٣) ولم تقتصر رسومات الوعل على الجزيرة العربية فحسب بل ظهر الوعل في الفن الإيراني كذلك، وفي منطقة ما يُعرف بالشرق الأدنى.(٤)

الوَعِل في لغة العرب

أطلق العرب في لغتهم أسماء الحيوانات بما يحمله من صفات، أو بما يقوم به من وظائف، أو بما يرتبط به من مكان أو زمان، ولعلَّ الأسماء التي كان يطلقها العربُ على الحيوانات حملت مضمونًا رمزيًّا أكثر منه نعتيًّا. والعمل على الأسطورة يصبح في لحظة من اللحظات عملًا على الأسماء، فالأسماء أسطورة مضغوطة في كلمات.(٥) فجاءت تسمية الوَعِل الذي يسكن الجبال، تحمل في دلالاتها أفكارَ العزّة والمنعة، والخلود والأبديّة، فاشتقُّوا من اسمِه المكان المنيع، فقالوا: الوَعْلَة للمَوْضِعِ المَنِيعِ مِنَ الجَبَل، أو الصَخْرَة المُشْرِفَة على الجَبَل. واسْتَوْعَلَ الوَعْلُ: إذا لَجَأَ في قُلَّتِه. واسْتَوْعَلَتِ الأَوْعالُ: ذَهَبَتْ في قُلَلِ الجِبَال. والوَعْلُ: تَيْسُ الجَبَلِ، وذَكَرُ الأُرْوِيِّ،(٦) وهي تسكن الجبال ولا تُسْهِل.(٧) وأضافوا الوعل إلى الجبل، وألصقوه به، فقالوا: الوَعِلُ: تَيْسُ الجَبَل.(٨) وقالوا في أمثالهم:

(١) القحطاني، محمد سعد عبده، تقدمات مباخر ومسارج للمعبودات في اليمن القديم (دراسة من خلال النقوش والآثار)، مجلة كلية الآداب، جامعة صنعاء، يناير _ يونيو، ع١، ٢٠١٠م. ص١٠٤.

(٢) نيلسن، ديتلف، التاريخ العربي القديم، ترجمة، فؤاد حسنين، مكتبة النهضة المصرية، مصر ١٩٥٨م . ص١٦٧.

(٣) الماحي، علي التجاني، صيد الوعل في الفن الصخري في عُمان، مجلة نزوى، سلطنة عُمان، ع٢٧، ٢٠٠١م. ص١٢.

(4) Avanzini,A.(2005).Some Thoughts on Ibex on plinths in Early South Arabian Art. Arabian Archaeology and epigraphy,16:144_153.p.141.

(٥) زكريا محمد، عبادة إيزيس وأوزيريس في مكة الجاهلية، ط١، آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٩م. ص٩.

(٦) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م): تاج العروس، تحقيق، عبد العليم الطحاوي، ط١، المجلس الوطني للثقافة والعلوم، الكويت ٢٠٠٠م، ج٣١، مادة: وَعَلَ.

(٧) الجاحظ، الحيوان، ج٤، ص ٣٥٢ _ ٣٥٣.

(٨) ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري (٧١١هـ / ١٣١١م): لسان العرب، تحقيق، عامر أحمد حيدر، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٣م، مادة: وعل.

أَزْهَى مِنْ وَعِلٍ. لتَرَفُّعِه وعلُوِّ مكانته، وذهبوا إلى أنّ اسمَ الوَعل مشتقٌّ من الوعلة، وهي البقعة المنيفة من الجبل.(١) ولعلّ تسمية الوَعل نفسه مشتقة من الأعالي.

وقد نسبوا بعض أماكنهم إلى الوعول، يقول امرؤ القيس(٢)

وتَحْسَبُ سَلْمَى لا تَزَالُ كَعَهْدِنا بِوَادِي الخُزَامَى أوْ عَلَى رَأْسِ أوْعالِ

وأطلقوا على جبل بين الشام والعراق "وُعال"، يقول النابغة الذبياني(٣)

أمِنْ ظلَّامَةَ الدِّمْنُ البَوَالي بمُرْفضِّ الحُبَيِّ إلى وُعالِ

ويقول أوس بن حجر(٤)

أَمْ مَنْ لِعادِيَةٍ تُرْدِي مُلَمْلَمَةً كأنَّها عارِضٌ مِن هضْبِ أوْعالِ

والوَعِلُ: الشَّرِيفُ.(٥) فأطلقوا الوَعِل على الرّجل الشريف الممتنع بقوّتِه ونسبه، وكان الشَّريفُ عندهم يحظى بقدسيّة أسطوريّة.(٦) ولابن منظور في لسان العرب ما يشير إلى هذا الرابط بين المكانة العلوية التي كان يتمتّع بها الشريفُ عند العرب والوَعِل في مسكنِه الجبلي: والأوْعالُ والوُعُولُ: الأشرافُ والرُّؤوسُ يُشَبَّهُون بالأوعالِ التي لا تُرى إلا في رُؤوسِ الجِبال.(٧)

ومن أسماء الوَعِل التي تدلّ على المنعة والقوّة: الأعْصَم، وهو ما يكون في ذِرَاعَيْهِ أو فِي أَحَدِهِما بَيَاضٌ. وعَصَمَ يَعْصِمُ عَصْمًا: مَنَعَ، وعَصَمَ: وَقَى. وأعْصَمَ فُلانًا: إذا هَيَّأَ له في السَّرْجِ والرَّحْلِ ما يَعْتَصِمُ بِهِ، لِئَلَّا يَسْقُطَ.(٨)

(١) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم (هـ ٥١٨ / ١١٢٤م): مجمع الأمثال، تحقيق، محيى الدين عبد الحميد، ج١، ص٣٢٧.

(٢) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، ديوانـــه، تحقيق، أنور أبو سويلم، محمد الشوابكة، ط١، مركز زايد للتراث، العـين ٢٠٠٠م، ج١، ص٣٠٨.

(٣) النابغة الذبياني، زياد بن معاوية بن ضباب، ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، دار المعارف، مصر، ص١٤٩.

(٤) أوس بن حجر، ديوانه، تحقيق، محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت (د.ت)، ص١٠٤.

(٥) تاج العروس، ج٣١، مادة: وَعَلَ .

(٦) من ذلك أنَّ بعض العرب كانت تعتقد بطهارة دَمِ أشرافِها؛ فكانت المرأة المقلات عندهم إذا وطئت قتيلًا شريفًا بَقِيَ أولادُها. النّويري، نهاية الأرب، ج٢، ص١٢٤. وانظر: الدغيشي، حمود، الملوك والسادة في الشعر الجاهلي، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، م٤، ع٣، الأردن، جامعة مؤتة، تموز ٢٠٠٨م، ص ص ٢٠٥ –٢٣٥.

(٧) لسان العرب، مادة: وَعَلَ.

(٨) تاج العروس، تحقيق، إبراهيم الترزي، ط١، ج٣٣، الكويت ٢٠٠٠م، مادة: عصم.

يصف أبو خراش الهذلي صغر الجبل الكبير في ليلة مظلمة، وقد ابتلّت الأرض بالندى، وفرق الوعول العُصْم التي تسكن الجبل الكبير[١]

تراها صِغارًا يَحْسِرُ الطَّرْفُ دُونَها ولَوْ كانَ طَوْدًا فَوْقَهُ فِرَقُ العُصْمِ

ولعلَّ تسمية الأعصم جاءت من اعتصامِه بالجبال. يقول الشَّنْفَرَى في لاميّته[٢] مشبِّهًا نفسه في السيادة والشَّرف بالأعصم من الوعول:

ويَرْكُدْنَ بالآصالِ حَوْلِي كأَنَّنِي مِنَ العُصْمِ أَدْفَى يَنْتَحِي الكَيْحَ أَعْقَلُ

وفي القرآن نلحظ الربط بين فكرة الاعتصام والجَبَل، حين أراد ابنُ النبيّ نُوح النجاةَ من الطّوفان: "قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ".[٣] وأطلقوا على الوعل الكبير السنّ: الفادِر؛ تشبيهًا له بـ "الفادرة"، وهي الصخرة الضخمة الصّمّاء في رأس الجبل.[٤]

ويفتخر امرؤ القيس بمنعته في بني ثُعَل، ويشبِّه منعته، ومنعة إبلِه في حيِّهم بمنعة الوعول في أعالي الجبال، يقول[٥]

تَبِيتُ لَبُونـي بالقُرَيَّةِ أمَّنًـا وأسْـرَحُها غِبًّا لأكنـافِ حائِـلِ

بَنُو ثُعَلٍ جِيرانُها وحُماتُهـا وتُمْنَعُ مِنْ رِجـالِ سـعدٍ ونَابِلِ

تُلاعِبُ أولادَ الوُعُولِ رِباعُها دُوَيْنَ السَّماءِ في رُؤُوسِ المَجادِلِ

(١) السكري، أبو سعيد الحسن بن الحسين (هـ ٢٧٥ / ٨٨٨م): شرح أشعار الهذليين، تحقيق، عبد الستار أحمد فراج، دار العروبة، القاهرة، ج٣، ص١٣٠٣.

(٢) لاميّة العرب، تحقيق محمد بديع شريف، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٤م، ص٦٤ – ٦٥، وانظر: ديوانه، تحقيق إميل بديع يعقوب، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩١م، ص٧٢ – ٧٣، العصم: هو الذي في ذراعيه بياض، وقيل في إحدى يديه بياض. أدفى: الذي طال قرنه جدًّا. الكيح: عرض الجبل. الأعقل: الممتنع.

(٣) سورة هود، الآية ٤٣.

(٤) لسان العرب، مادة: فدر.

(٥) ديوانه، ج٢، ص٥٧٢_٥٧٣.

ويقول النابغة نافيًا عن نفسه الخوف؛ لأنه متحصِّن مثل الوعل[١]

وقد خِفْتُ حتى ما تزيدُ مخافتي على وَعِلٍ مِن ذي المَطَارَةِ عاقِلِ

والإيَّلُ: الوَعلُ الذَّكَرُ. والإيَّلُ: هُوَ ذُو القَرْنِ الشَّعِث الضَّخْم، مثل الثَّوْر الأهْلِيّ. وإنَّما سُمِّيَ إيَّلًا كذلك؛ لأنه يَؤُولُ إلى الجِبال، يَتَحَصَّنُ فيها.[٢] وقد عرف الكنعانيون الإله "ايل EL"، على أنه أبو الآلهة، وأبو الإنسان، ووالد الأعوام ... .[٣]

الوَعلُ وآلهة القمر:

إنّ المئات من مواقع النقوش الصخرية في شبه الجزيرة العربية التي تضمّ آلاف الأشكال البشرية والحيوانية تُعَدُّ رموزًا، ورسومًا تخطيطية ذات أفكار معيّنة مرتبطة بها؛ بمعنى آخر، فهي تُعَدُّ جزءًا من نظام اتصالات رمزي، حيث يمكن لعناصر هذا النظام الفني تقديم نطاق عريض من المعاني، وتكون هذه المعاني مفهومة للمجتمع الذي رُسِمت فيه تلك الرسومات.[٤]

فكانت للوعل مكانة مرموقة عند الإنسان في التاريخ القديم لشبه الجزيرة العربية، وفي اليمن بشكل خاص، فهو رمز من رموز ما كان يُعرف بـ "آلهة القمر". لقد كان حيوانًا مقدَّسًا؛ نُحت في أفاريز المعابد، وحول النقوش الكتابية التي تقوم نذرًا للمعبد، وكان يُقدَّم تماثيل قربانية من مواد مختلفة، وفي مواضع كثيرة إلى جانب الثور أحيانًا. ويمكن العثور على الوعل بشكل كبير مرسومًا، ومنقوشًا، ومحفورًا على الصخور في الأودية، وقرب الجبال، وفي طرق القوافل بين المناطق.[٥]

لقد أوحى قَرْنَا الوَعل واعتكافهما إلى الإنسان القديم صورة القمر ودورانه، وكانت عبادة القمر أوسع انتشارًا في بلاد العرب؛ لأنه رفيق البدو الرّحّل في تحرّكاتهم، وحامي القوافل وحاديها. وعُرِفَ بأسماء متعددة، أقدمها "سين" عند قتبان، و"أب" و"عم" و"كهل"، و"المقه"، و"ود" و"يارح" أو "رخ".[٦]

(١) ديوانه، ص١٩٨.

(٢) تاج العروس، تحقيق، محمود محمد الطناحي، ج٢٨، الكويت ١٩٩٣م. مادة: أول.

(٣) عبد الجبار المطلبي، مواقف في الأدب والنقد، دار الرشيد، العراق ١٩٨٠. ص٨٩.

(٤) انظر: خان، مجيد، التركيب والشكل في الرسوم الصخرية في شمال المملكة العربية السعودية، الأطلال، حولية الآثار العربية السعودية، الرياض، ق٣، ع١١، ١٩٨٨م، ص١١٥.

(٥) العيدروس، حسين أبو بكر، صيد الوعول، طقوس تعلّمتها الكلاب السلوقية (معلومات مقارنة من خلال لوحة حجرية منحوتة من متحف سينون للآثار)، مجلة المتحف اليمني، وزارة الثقافة، اليمن، ع٣، ٢٠٠٩م، ص٤٧.

(٦) عواطف سلامة، أهل مدين، دراسة للخصائص والعلاقات، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ٢٠٠١م، ص٢٠٣.

ويبدو أنَّ القَرْنَيْن اكتسبا ميزة أسطوريّة في التاريخ القديم، وقد بقيت قرون الثور النيوليتي تُزيِّن رؤوس الآلهة الأبناء حتى العصور المتأخرة.(١) وكان "ديونيوس" إله الخصب والحياة عند الإغريق يُلَقَّب بـ "المعبود ذو القرون".(٢) يظهر الإله بعل الكنعاني في رسومه ومنحوتاته بقرون بارزة.(٣) وظهر الإله (آشور) في لوحة رافدية قديمة، وهو يلبس قلنسوة ذات قرنَيْن.(٤) ورأى سكان العراق القديم بقرون الهلال، كقرون الثور، قوّة الإخصاب.(٥) وكانت الحيوانات المُقدَّسة للإله "آمون" في طيبة في مصر تتميّز بقرون ملتوية، وعُدَّ التيس في شمال مصر مُقدَّسًا ومعبودًا.*(٦) كذلك كان المعبود الإيراني إله الخير "أهورامزدا" يرمز له بقَرْنَيْن.(٧)

وفي اللغة تجتمع دلالات الخِصْب والقدسية في المرأة والربّة "شمس"، إذ يرد في لسان العرب: القَرْنُ: ذُؤابةُ المرأةِ، وضفيرتُها. وقَرْنُ الشّمسِ: أوّلُها عند طلوعِ الشّمس، وأعلاها، وقيل أوّلُ شعاعها. وكان يُتَصَوَّرُ أنّ للشّمسِ قَرْنَيْنِ. وقَرْنُ القَوْمِ: سيّدُهم. وقرينةُ الرّجُل: امرأتُه. ويُطلَق لفظة "اقتران" على اقتران الشمس بالقمر، وعلى اقتران الكواكب بعضها ببعض، وفي هذه اللفظة معنى الازدواج. ومن هذا الزواج بين الذكر "القمر" والأنثى "الشمس" نتجَ ولدٌ عند العرب الجنوبيين، وهو "عثتر".(٨) واتُّخِذَتْ قرون الوعل نذورًا عند عرب الجنوب.(٩)

وذكر "جواد علي" صورةَ تاج في أحد الأعمدة، وقد زُخْرِفَ بحيث ظهر وكأنه كتلة من رؤوس خرفان، أو حيوانات لها قرنان كالوعل، ولعلّه يرمز إلى الإله القمر.(١٠) ومارسَ العرب بشكل عام،

(١) فراس السواح، لغز عشتار، ط٨، دار علاء الدين، دمشق ٢٠٠٢م، ص٧٤.

(٢) مواقف في الأدب والنقد، ص٩٥. ولغز عشتار، ص٢٧٥.

(٣) لغز عشتار، ص٧٤.

(٤) انظر: موسكاتي، سبيتنو، الحضارات السامية، ترجمة، يعقوب بكر، دار الكتاب العربي للطباعة، القاهرة ١٩٥٧م، ص٢٦٤. وسيّد القمني، الأسطورة والتراث، ط٢، سينا للنشر، القاهرة ١٩٩٣م، ص٢٢٧.

(٥) مواقف في الأدب والنقد، ص٩٤.

(٦) إرمان، أدولف، ديانة مصر القديمة، ترجمة، عبد المنعم أبو بكر، ومحمد أنور شكري، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٩٥م، ص٧٧_٧٨. * ذكر أحد الباحثين في حديثه عن تجارة الكحل الأسود في شبه الجزيرة والعلاقة التجارية مع مصر أنّ إقليمًا تسمَّى بـ " إقليم الوعل " في مصر الوسطى في أوائل القرن التاسع عشر قبل الميلاد. انظر: صالح عبد العزيز، شبه الجزيرة العربية في المصادر المصرية القديمة، مجلة عالم الفكر، الكويت، م١٥، ع١، ١٩٨٤م، ص٣٠١.

(٧) الأسطورة والتراث، ٢٢٨.

(٨) انظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢، بغداد ١٩٩٣م، ج٤، ص١٧٤.

(٩) باسلامة، محمد، صيد الوعل في الحضارة اليمنية القديمة، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ع١، يناير–يونيو ٢٠١٠م، ص١٣٩.

(١٠) انظر: المفصل في تاريخ العرب، ج٨، ص٣٨.

واليمنيون بشكل خاص تعليق رؤوس الوعول، ورَفْع قَرْنَي الوعل في زوايا المنازل والبيوت، وهي من الممارسات التي تعود إلى أصول قديمة ومشتركة بين الأمم، وتجسّد صورةً من صور الحماية التي كان يُرمَز إليها، حيث كانوا يضعونها على المداخل الخاصة بالمعابد والمنازل.(١)

وكان الوعل ذا مكانة مهمة ليس لصفته الحيوانية بأنه أفضل قربان للآلهة في معابدها فحسب، وإنما لما يمثّله بصفته الطبيعية، إلى جانب شكل قرونه الملتوية التي تشبه تدوير الهلال والقمر، لذلك كان اهتمام الفنان اليمني القديم بشكل الوعل،(٢) فضلًا عن أهمية الوَعل في عملية الكشف عن المراعي، والبحث عن المناطق المطيرة ذات العشب الأخضر التي كان يقوم بها الوعل، خلقَ كُلُّ ذلك حظوة ومكانة قدسيّة لهذا الحيوان الجبلي لدى الإنسان اليمني القديم.(٣) فكانت بعض الثقافات تعدُّ القمر هو المسؤول عن خصوبة النساء، فضلًا عن خصوبة الأرض، ويرجع ذلك في الأصل إلى الإيمان القديم بالقوة الخالقة للأمّ القمرية الكبرى، التي تنفخ الحياة في أرحام النساء، وتهب الجنسين خصوبتهما، كما تفعل في الطبيعة النباتية.(٤)

يقول النابغة الجعدي يصف بقر الوحش، ويذكر قَرْنَيْها، واعتكافهما كالقمر(٥)

وَوَجْهًا كَبَرْقُوعِ الفَتاةِ مُلَمَّعًا ورَوْقَيْنِ لمّا يَعْدُوَا أنْ تَقَمَّرَا

وكان الرمز الحيواني المقدَّس لدى سكان جنوب الجزيرة العربية القدماء، للإله (القمر) هو الوعل، فقد كان رمزًا للإله (المقه) في حضارة سبأ، وكان رمزًا للإله (عم) في قتبان، ورمزًا للإله (ود) في معين، ورمزًا للإله (سين) في حضرموت.(٦)

(١) بركات، أبو العيون، الفن اليمني القديم، مجلة الإكليل، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، السنة ٦، ع ١، ١٩٨٨م، ص٨٦. وبن عقيل، قنيص الوعل في حضرموت، ط١، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ٢٠٠٤م، ص٣٣.

(٢) صيد الوعل في الحضارة اليمنية القديمة، مجلة كلية الآداب، جامعة صنعاء، يناير _ يونيو اليمن، م٣، ع١، ٢٠١٠م، ص١٣٧– ١٣٨.

(٣) الفن اليمني القديم، ص٨٦.

(٤) انظر: لغز عشتار، ص٨٣ و ص٨٤.

(٥) النابغة الجعدي، ديوانه، تحقيق، واضح الصمد، ط١، دار صادر، بيروت ١٩٩٨م. ص٨٠. والقُرَشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطّاب (أوائل القرن الرابع): جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق، محمد علي الهاشمي، ط٢، ج٢، دار القلم، دمشق ١٩٨٦م، ص٧٧٧.

(٦) انظر: طعيمان، ص٥٠. *سبأ الأولى: من بداية الألف الأول قبل الميلاد إلى دخول عصر الإسلام. قتبان: من القرن السابع قبل الميلاد إلى القرن الثالث الميلادي. معين: من بداية القرن الثامن قبل الميلاد إلى القرن الثاني الميلادي. حضرموت: من القرن الرابع قبل الميلاد إلى القرن الرابع الميلادي.

وقد عبّر الحضرميون عن معبودهم الأكبر الذي تخيّلوه يُهيمن على القمر باسم "سين" .. وسبق أن أطلق الأكاديون والبابليون كذلك في العراق على معبودهم القمر "سين"؛ مما يعني أنه كان ساميًّا قديمًا، واسع الانتشار... .[١]

لعلَّ الخصائص والصفات التي لاحظها الإنسان القديم في الوعل هي التي جعلته يصبح رمزًا للإله (عثتر) في الأرض، ليقابله نجم الزهرة رمزًا للإله "عثتر" في السماء، وقد عُرِف عن الوعل أيضًا أنه يعيش ويقاوم أصعب ظروف الحياة، مستلقيًا أعلى شناخيب الجبال. وينطلق الوعل في فترة الجدب ويصعد إلى أعالي قمم الجبال ليتحسس الأماكن الممطرة.[٢] ونظرًا لما يمثله الوعل من مظاهر القوة والشموخ، أصبح في حضارة جنوب الجزيرة العربية القديمة رمزًا مقدَّسًا للإله (عثتر).[٣]* إله المطر والخِصب. وارتبط اسم الوعل (الأغنام الجبلية) بالصيد المُقدَّس، بل إنّ بعض المعبودات جعلت من أسماء تلك الحيوانات صفات لها، فـ "المقه" (سيد الوعول).[٤]

يشير "اشميدت Chmidt" إلى أنّ المعبد المُسمَّى (اوعال صرواح) أُقِيم للإله المقه، في العاصمة السبئية (صرواح وهذا يؤكد ارتباط الوعل في مناطق (صرواح) كحيوان مقدَّس للإله المقه.[٥]

(١) صالح عبد العزيز، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، مكتبة الأنجلو المصرية، ص٨٩. وقد كانت شبه جزيرة العرب حلقة اتصال بين شعوب العالم القديم. وقامت بين سكانها وهذه الشعوب علاقات تجارية، وصراعات وحروب، وتبادل ثقافي وحضاري. فقد كان السومريون يحصلون على النحاس من عُمان. ووُجِدت صلات بينهم وبين السبأيين والحميريين ... . حسين العودات، الموت في الديانات الشرقية، ط٢، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق ١٩٩٢م، ص١٢٥. وانظر في تفصيل العلاقة بين جزيرة العرب والحضارة المصرية والرافدينية قديمًا: فيليب حتّي، تاريخ العرب، ط٨، دار غندور للطباعة والنشر، بيروت. ص٥٩_٧٠.

(٢) الإرياني، مادة الوعل في الموسوعة اليمنية، ط٢، مؤسسة العفيف الثقافية، صنعاء ٢٠٠٣م، ج٤، ص٣١٦٨.

(٣) مصائد الوعول ..، ص٤٠. * هو إله الزهرة أو نجمة الصباح والمساء المعروف عند اليمنيين القدماء، وكان واحدًا من آلهة اليمن القديم الأساسية والرئيسة وأقدمها، وكانت عبادته واسعة الانتشار في اليمن القديم، وكان يرتبط في عقيدة الناس عند أهل اليمن القدامى بالمطر والغيث، وحماية الناس والممتلكات، والشفاء والوقاية من الأمراض والكوارث الطبيعية .... . انظر: تقدمات مباخر ومسارج للمعبودات ..، ص١١٥. وقد تعبَّدَ العربُ الجنوبيون الثالوث السماوي الذي تألَّفَ من القمر، والشمس، ومن عثتر، وهو الزهرة. وعُرِفَ عثتر بـ "عثتر" عند المعنيين والسبئيين، وعند قتبان وأهل حضرموت والأوسانيين. انظر: المفصّل في تاريخ العرب، ج٦، ص١٧٦. كما اعتقد البابليون بأنّ الشمس تمثّل الإله "شمش"، والقمر الإله "سين"، والزهرة الآلهة "عشتار". انظر: فاضل عبد الواحد علي، عشتار ومأساة تمُّوز ، ط٢، الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م، ص٤٢.

(٤) النعيم، نورة بنت عبدالله، التشريعات في جنوب غرب الجزيرة العربية حتى نهاية دولة حمير، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ٢٠٠٠م، ص١٧٧.

(٥) انظر: القحطاني، محمد سعد، آلهة اليمن القديم، ورموزها حتى القرن الرابع الميلادي، رسالة دكتوراه غير منشورة، قسم الآثار، كلية الآداب، جامعة صنعاء ١٩٩٧م، ص٣٤.

وتأكيدًا لقداسة أصلهم تلقَّب حكّام سبأ بلقب "ولد إلمقه"؛ أي أنهم أبناؤه، وخصَّ السّبئيّون معبودهم الأكبر هذا بربوبية القمر، وعَدُّوه "سيِّد وعول صرواح".

واتّخذ الإله عمّ (في الدولة القتبانية) صفة صاحب الوعول، واهتمَّ الفنان القتباني بتصوير الوعل، فقد كان أحد الرموز الخاصة بالإله عمّ، ووُجُودُ رسوم الوعل على عتبات الأبواب وجدران المباني، وعلى القطع الفنية في القبور، هو إشارة على وضعها في حماية الإله عمّ، ورعايته وحفظه لأصحابها... .(١)

الوَعِل والخِصْب:

تشير بعض أسماء الوَعل بما يتعلَّق بالخِصْب والجِنْس فمن ذلك وَلَد الوَعل، وهو: الفُرْهُود، وقد اشْتُقَّ اسْمُ الفُرْهُد للغُلامِ المُمْتَلِئِ الجِسْمِ، الحَسَنِ الوَجْهِ؛(٢). والشَّيْخُ: الوَعِلُ المُسِنُّ. والشَّيْخُ لِلْمَرْأَةِ: زَوْجُها.(٣) ورُوِيَ أنَّ الخيلَ إذا شربت ألبان الأيائل _ وهو الذَّكَر من الأوعال _ اغتلمت.(٤) يقول النابغة الجعدي(٥)

بُرَيْذِينَةٌ بَلَّ البَرَاذِينَ ثَفْرُها وقَدْ شَرِبَتْ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ أُيَّلا

وأطلقوا على الوَعل المُسِنّ: الفَادِر؛ ذلك أنَّه انقطع عنِ الضِّراب؛ أي الجماع.(٦) وفي طباع الوعل أنه إذا اجتمع في ضرع الأنثى لبنٌ امتّصتْه، والذكر إذا ضعف عن النزو أكل البلوط فتقوى شهوته، وإذا لم يجد الأنثى انتزع المني بالامتصاص بفِيه، وذلك إذا وجد به الشبق.(٧) وتظهر العلاقة بين الوَعِل والجنس والخِصْب من جهة، والوَعِل والعزَّة والمنعة من جهة أخرى؛ فالمُخَدَّم: مَوْضِعُ

(١) الحسني، جمال محمد ناصر عوض، الإله عم وآلهة قتبان (٧٠٠ ق.م _١٧٠م)، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة طنطا ٢٠١٢م، ص١٥١_١٥٢.

(٢) تاج العروس، ج٨، تحقيق، عبد العزيز مطر، ط٢، ١٩٩٤م، مادة: فرهد. وهو ما يجمع بين الخِصْب (الامتلاء) والمعبود القمر (الحسن الوجه) الذي كان الوَعِل أحد رموزه الحيوانية المقدّسة.

(٣) تاج العروس، ج٧، تحقيق، عبد السلام هارون، ط٢، ١٩٩٤م، مادة: شيخ.

(٤) لسان العرب، مادة: أول.

(٥) النابغة الجعدي، ديوانه، تحقيق، واضح الصّمد، ط١، دار صادر، بيروت ١٩٩٨م، ص١٣٤. الأُيَّل: اللبن الخاثر؛ أي: لبن أيِّل.

(٦) لسان العرب، مادة: فَدَرَ.

(٧) حياة الحيوان الكبرى، ج٤، ص٤٨١.

الخَلْخالِ مِنْ ساقِ المَرْأةِ. ومِنَ المَجاز: المُخَدَّم، وهو رِباطُ السَّرَاوِيل. ومِنَ المَجاز كذلك: الخَدْمَاءُ، وهي الشَّاةُ البَيْضاءُ الأَوْظِفَة، وكذلك الوُعُول تُشَبَّه بالخَدَمِ مِنَ الخَلاخِيل. يقول الأعشى[١]

ولَوْ أَنَّ عِزَّ النَّاسِ في رَأْسِ صَخْرَةٍ مُلَمْلَمَةٍ تُعْيِي الأَرَحَّ المُخَدَّمـــا

لَأُعْطاكَ رَبُّ النَّاسِ مِفْتاحَ بابِها ولَوْ لَمْ يَكُنْ بابٌ لَأَعْطَاكَ سُلَّما

وقد كان الوَعل يرمز إلى القدرة الجنسية، حيث ارتبط بديونيسوس الإغريقي الذي ارتبطت عبادته بالطبيعة المتوحّشة، بالجبال ووعولها، فكان يسقي عابداته حليب الوعول. [٢]

وظهر الوَعلُ بصحبة "عشتار" في الأختام السومرية في رسومات العصر النيوليتي، وكذلك في نحت أوغاريت.[٣] وهناك ختمٌ آشوريّ يعود تاريخه إلى النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد، صُوِّرَ عليه مشهد ... تظهر فيه الآلهة عشتار وهي تحمل أسلحتها ... ويظهر بالقرب منها مشهدٌ لِوَعلَيْنِ متشابكَيْنِ.[٤] وفي بعض الأختام السومرية تظهر الآلهة عشتار واقفة فوق تَيْسَيْن. وفي نحت أوغاريتي يشبّ تَيْسان على أقدامهما الخلفية من اليمين والشمال.[٥] فقد كانت الآلهة "عشتار" تجسيدًا للخِصب في مظاهر الطبيعة المختلفة.[٦] والآلهة "عشتار" السومرية الأنثى هي نفسها الآلهة "عشتر" الأكدية، و"عشترت" لدى الفينقيين والعبريين، وعشتروت، وهي ابنة الأب آلهة القمر "سين"، وهي تمثِّل كوكب الزهرة، وقد انتقلت إلى عرب الجنوب بمسمَّى "عثتر"[٧]، على أنه إله ذكر، وهو ابن آلهة القمر "سين"، ويمثّل كوكب الزهرة. وتجسّد هذه الآلهة في مراحلها الزمنية وجغرافيتها المتنوعة فكرة الخِصب.

يذهب "نيلسن" إلى أنّ عبادة العرب كانت عبادة طبيعية؛ لهذا تعبّدوا الأجرام السماوية والنجوم، لا سيما النجم الثاقب "الزهرة"، وقد بالغوا في تقديسه، واعتبروه إلهًا ذكرًا، وليس بعجيب أنْ تكون "الزهرة" إلهًا ذكرًا في الديانة العربية القديمة، ويُستثنى من ذلك بعض القبائل العربية المتأثرة بطقوس عبادة

(١) انظر: تاج العروس، تحقيق، عبد الكريم العزباوي، الكويت ٢٠٠٠م، ج٣٢، مادة: خدم. والأعشى، ميمون بن قيس، ديوانه، تحقيق، محمد حسين، مكتبة الآداب، مصر، ص٢٩٧.

(٢) ريتا عوض، بنية القصيدة الجاهلية، الصورة الشعرية لدى امرئ القيس، ط١، دار الآداب، بيروت ١٩٩٢م، ص٢٣٨. وانظر: Edith, H. (1953). Mythology. Calcutta 9: Vidyodaya Library Private LTD. p 57.

(٣) انظر: لغز عشتار، ص١٤٥ _ ١٤٦.

(٤) عشتار ومأساة تموز، ص٥١.

(٥) لغز عشتار، ص١٤٧.

(٦) عشتار ومأساة تموز، ص١٢٩.

(٧) انظر: الحضارات السامية، ص٢٥٦.

"عشتروت" الآشورية، والتي كانت مستعملة عند الآراميين. وقد ذكرَ الشِّعرُ العربي الزهرةَ مذكّرًا.(١) وعُرِفَ "عثتر" بأسماء مختلفةَ اللفظ طبقًا للهجات العربية المختلفة، مثل: "عثتر" و "عشتر" و "اثر" و"عشتار" و "عشتروت" و "اشتار".(٢) ويرى جواد علي أنّ تذكير الزهرة "عثتر" من جملة الفروق الموجودة بين ديانة سكان العربية الجنوبية وديانات الساكنين في شمال العربية الجنوبية، فإنَّ الزهرة هي أنثى عندهم، إذْ كان القمر احتلّ مركزًا أكبر في ديانة العرب الجنوبية.(٣)

وكان الوعل يمثِّل رمزًا للماء الذي يُعَدُّ أمرًا ضروريًّا للزراعة التي تعتمد على مياه الأمطار، وتُعَدُّ من أهم المقومات الأساسية لنشوء الممالك في جنوب الجزيرة العربية وتطوّرها، ومن خلال ذلك أصبح الوعل أساسًا في عمليات الصيد المُقدَّس.(٤) فضلًا عن اعتقادهم أنَّ الوعل يجلب لهم خصوبة الأرض.(٥)

وكان الصيد في سبأ يُقام من أجل الإله "عثتر" إله المطر والخِصب، الذي يمثِّل الوَعِلُ رمزه المقدَّس.(٦) والذي هو يعود في الأصل إلى حضارة بلاد الرافدين بالآلهة المؤنثة "عشتر" أو "عشتار".

الصَّيْد المُقَدَّس:

كانت الجماعات الإنسانية البدائية حريصة على إنجاح رحلات رجالها ابتغاءً للصيد؛ بإقامة الطقوس والشعائر، ويطلق عليها "براندون" بالسحر الدينية.(٧) وكان يُطلَق على الصيدِ المقدَّس الصَّيْدُ الدِّينيّ أيضًا؛ وهو يختص بصَيْد حيوانات معينة، يمارسه الملوك والكهنة وبعض المرافقين؛ لغرض

(١) التاريخ العربي القديم، ص١٩٩_٢٠٠.

(٢) انظر: منذر عبد الكريم، دراسة في الميثولوجيا العربية: الديانة الوثنية في بلاد جنوب شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، الكويت، م٨، ع٣٠، ١٩٨٨م، ص١١٦.

(٣) المفصّل في تاريخ العرب، ج٦، ص٥٧.

(٤) انظر: مصائد الوعول ..، ص٤١.

(٥) الجاويش، عبد الرحمن يوسف عبد الرحمن، الموارد الطبيعية في اليمن القديم (حضارة سبأ نموذجًا)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الآثار، جامعة صنعاء، اليمن ٢٠١٢م، ص٢٢٩.

(٦) الإله عم وآلهة قتبان، ص٣٢٧.

(٧) علي البطل، الصورة في الشعر العربي، شركة الفجر العربي، بيروت. ص١٢٤. وانظر:
Brandon, S.G.F. (1969). Religion in Ancient History: Studies in ideas, men and events. New York: Charles Scribner's Sons. Pag:3.

دينيّ في استرضاء الإله؛ لتحقيق بعض المسائل العامة والخاصة.(١) وكان الأيّل البرّي الحيوان المقدّس لإلهة الصيد الإغريقية "آرتميس".(٢)

والصيد من الشعائر الدينية، في حضارة جنوب الجزيرة العربية، وكانت ممارسته رغبةً في الحصول على رضا المعبود وحظوته، وهو شعيرة سنوية تُؤَدَّى في أوقاتٍ معيَّنة، والفشل في عدم إنجازها يجلب غضب المعبود وانتقامه.(٣)

وكان يقام باسم عدد من الآلهة الرئيسة،(٤) حيث ظهور الديانة الكوكبية في تلك الفترة، ورافق ذلك الازدهار الحضاري بداية تأسيس ممالك جنوب الجزيرة العربية، وقد قامت الديانة الكوكبية على آلهة مجسدة تُقدَّم لها القرابين والهدايا؛ من أجل طلب الرضا والمعونة، ومن بين تلك الشعائر الدينية التي تقام لتلك الآلهة هو الصيد المقدَّس.(٥) وهذا الصيد تقليد قديم في جزيرة العرب، وله صلة بمواسم الأمطار.(٦) فكانت بعض هذه الآلهة تقترن بالحماية والخصوبة، ويُرمز لها بالوعل ... .(٧) كما هي الحال في جنوب الجزيرة العربية.

وكانت مشاهد طقوس الصيد شائعة في الجزيرة العربية، ومنقوشة على الصخور، وتُشير إلى طقوس سحريّة، تجري ممارستها كنوعٍ من المباريات في أماكن محددة، يُشرِف عليها كاهن، أو ساحر من السحرة.(٨) وقد عُثِرَ على صُوَر مرسومة على جدران الكهوف، رسمها الفنان القديم، تُظهر عددًا من الحيوانات، وقد غُرِست سهامٌ في جسدها؛ بقصد صيدها*.(٩) إلا أنه لا يمكن – بحال من الأحوال

(١) العريقي، منير عبد الجليل، الفن المعماري والفكر الديني في اليمن القديم من ١٥٠٠ ق.م إلى ٦٠٠م، ط١، مصر القاهرة، مكتبة مدبولي ٢٠٠٢م، ص٩٦.

(٢) لغز عشتار، ص٨١.

(٣) التشريعات في جنوب غرب الجزيرة العربية ... . ص٧٨.

(٤) الزبيري، خليل وائل محمد، الإله عثتر في ديانة سبأ (دراسة من خلال النقوش والآثار)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ والآثار، جامعة عدن، اليمن ٢٠٠٠، ص١١٥.

(٥) انظر: الفن المعماري والفكر الديني ..، ص٤٢.

(٦) صيد الوعل في الحضارة ..، ص١٣٣.

(٧) مصائد الوعول ..، ص٤٤.

(٨) الكباوي، عبد الرحمن، وآخرون، التقرير المبدئي عن المرحلة الثانية للنقوش والرسوم الصخرية في المنطقة الشمالية للسعودية، مجلة أطلال، ع١٠، ١٩٨٦م، ص١٠٤.

(9) Campbell, J. (1960). The Masks of God: Primitive Mythology. London: Secker & Warburg.p 305.

* أطلق فريزر على هذه العملية السِّحْر التشاكلي، انطلاقًا من مبدأ التشابه "الشّبيه يُنتج الشبيه"؛ إذ إنَّ ما يلحق بالصُّورة من شرّ وضرر يلحق بصاحبها، وأنه حين تُدَمَّر الصُّورة يموت الأصل بالضرورة. انظر: فريزر، جيمس، الغصن الذهبي، ترجمة، أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧١م، ص١٠٩.

– أن تكون تلك اللوحات في هذه الأماكن المظلمة والقصيّة مجرد ممارسة سحريّة فقط دون أنْ تختزل عمقًا دِينيًّا، وطقوسًا معينة كان العربي القديم يمارسها تقرّبًا لآلهته.

وقد ظهرت لوحة فنية بأعداد كبيرة تمثّل انتشار شعائر الصيد المقدَّس في ممالك جنوب الجزيرة العربية، فصُوِّرَ الوعلُ على أعمدة المعابد، مثل: معابد مدن دولة معين، شمال اليمن، فضلًا عن أفاريز الوعول التي كانت تزيِّن الجدران العليا من معبَدَيْ (آوام) في مأرب، ومعبد (أوعال صرواح) في مدينة صرواح.(١) حيث كانت (مدينة صرواح) مرتبطة بالصيد الديني.(٢)

وقد ورد عند الزبيدي: ذاتُ أوعالٍ: موضِعٌ.(٣) ولعل له علاقة بالمناطق الجبلية، وبصيد الوعول (صيد عثتر) المتعلّق بهطول الأمطار، وسَقْي الأرض المزروعة في (سهل صرواح).(٤) وارتبطت مواسم الصيد بالإله (عثتر)، وغالبًا ما ترد عبارة (ويوم صاد صيد عثتر)، مما يدلّ على استمرارية الصيد للإله عثتر دون غيره من الآلهة.(٥)

كان المجتمع كلّه يشارك في صيد الوعول؛ وذلك لغرض طلب الإله بنزول المطر، وهو المعروف بـ (صيد عثتر).(٦) وذكر أحد النقوش أنّ الملك (أبي كرب أسعد) أدَّى الصيد باسم رب السماء (رحمنن) "سيد السماء".(٧) وفضلًا عن الإله "عثتر" و "رحمنن" كونهما من معبودات آلهة الصيد في جنوب الجزيرة العربية، فقد كان هناك الإله "حلفان" وقد عُرِف في مدينة هرم، وهي إحدى مدن دولة معين التي تمركزت شمال اليمن، وقد وردَ في نقشٍ يدلّ على أنّ هناك صيدًا كان يُقام باسم

(١) صيد الوعل في الحضارة.. ، ص١٣٨ .

(٢) الفن المعماري والفكر الديني ..، ص٩٦. وانظر: رسومات الوعل أيضًا في التقرير المبدئي عن المرحلة الثانية للنقوش والرسوم الصخرية في المنطقة الشمالية للسعودية، الكباوي، وآخرون، مجلة أطلال، ع١٠، ١٩٨٦م، ص١٠٤. حيث مشاهد صيد الوعول، كما ظهرت رسمة لوعل بحجم كبي . وهناك مناظر صيد الوعول، تعود إلى العصر البرونزي/ الحديدي، ونقوش صخرية للوعول، تعود إلى العصر الحديدي المتأخر. ص١٠٧. وانظر: جون هيلي، الأنباط ومدائن صالح، مجلة أطلال، ع١٠، ١٩٨٦م، ص١٤٠. حيث عُثِر على كثير من الرسوم الصخرية للوعول في مشاهد صيد.

(٣) تاج العروس، مادة: وعل.

(٤) الفن المعماري والفكر الديني.. ، ص٥٦.

(٥) الفن المعماري والفكر الديني ..، ص٩٦.

(٦) العتيبي، محمد بن سلطان، المعبد قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية (العراق _ بلاد الشام _مصر)، ط١، دار الوراق، بيروت ٢٠١٤م، ص١٢١.

(٧) صيد الوعل في الحضارة ..، ١٣٢–١٣٣.

حلفان نسبة إلى الإله "حلفان".[١] والإله "تألب"، وهو المعبود الرئيس في اتحاد (شعب سمعي).[٢] وقد أُقِيم للإله "تألب" العديد من المعابد في نطاق المنطقة التي يسيطر عليها (اتحاد سمعي) وما جاورها، وكانت تُقام له القرابين، وتُهدى له الهدايا؛ حتّى أصبح الإله الرئيس، والإله المُقدَّس لديهم ... وقد أوردت النقوش عددًا من التشريعات الخاصة بالصيد المُقدَّس للإله "تألب".[٣] من ذلك ما ورد: "يحظر المعبود "تالب" حراس بوابات المدينة من طرد قطيع (الأغنام الجبلية) التي ترعى (أمامها)؛ لأنها مُقَدَّسَة.[٤]

وكانت الكلاب إحدى الطرق التي يُصطادُ بها الوعول، وظهر في إحدى الصخور منظرُ اعتلاءِ كلبٍ ظَهْرَ وعلٍ يركض إلى الأمام.[٥] قد بقيت عادة صيد الوعول هذه مستمرة في وادي حضرموت حتى العصر الحاضر في جميع مدن الوادي وقراه، حيث تُقام سنويًّا مراسيم خاصة، يُوَدَّع من خلالها الصيّادون الذين يذهبون إلى الجبال لصيد الوعول بالطبول والأناشيد الشعرية.[٦] كما يرددون الشِّعر والأغاني أثناء الاحتفال بالصيد.[٧] وكان الصيادون أثناء الاحتفال بالصيد يرفعون قرون الوعل عاليًا، وهم يقومون بالرقص والغناء.[٨] كما كانوا يعرضون رؤوس الوعول وقرونها في البيت.[٩]

وعادةً ينتهي الصيد المُقدَّس بإقامة ولائم مُقدَّسة تُنحر فيها تلك الحيوانات، وتُقدَّم أجزاء منها للمعبود.[١٠] أمَّا الوعل الكبير الذي يتقدّم القطيع فليس من بين الحيوانات التي تُنحر أثناء الوصول إلى المعبد؛ ربما لقداسته أكثر من غيره؛ كونه يمثل قائد القطيع. وقد اتخذوا من الوعل الفحل قائد

(١) الإله عثتر في ديانة سبأ، ص١١٥.

(٢) الإله عم وآلهة قتبان، ص٣٢٧ .

(٣) التشريعات في جنوب غرب الجزيرة العربية ..، ص١٧٧. وانظر: مصائد الوعول ..، ص٤٨ .

(٤) انظر: التشريعات في جنوب غرب الجزيرة العربية ..، ص١٧٧.

(٥) صيد الوعل في الحضارة .. ، ص١٤٤.

(٦) صيد الوعول، طقوس تعلّمتها الكلاب السلوقية، ص٤٩ .

(7)Rodionov,M.(1994).The Ibex Hunt Cermony in Hadramawt Today.In R.L. Bidwell,G.Rex Smith & J.R.Smart (Ed.), New Arabian Studies (pp.123-129). Exter:University of Exeter Press.p125.

وانظر طريقة الصيد أيضًا:

Jacques,R.(1976).An Ancient Stone Structure of Ibex in western Saudi Araia. Proceedings of the Seminar for Arabian Studies,6,161-165.

(٨) صيد الوعل في الحضارة ..، ص١٣٩.

(9) Rodionov,M. p125.

(١٠) التشريعات في جنوب غرب الجزيرة العربية.. . ص١٧٧.

القطيع رمزًا يجسّد الإله "عشتر" آلهة المطر والخِصب والإخصاب.(١) وليس في صيد الحيوان وعبادته أو الانتساب إليه تناقض في سلوك الإنسان القديم وعقائده.(٢) فقد كان يرى أنّ تناول لحم الضحية المقدسة يجعل مَن يأكله متلقّيًا حياةً بصفات إلهية، ويحلّ قوى هذه الآلهة في جسده ... .(٣)

أسطورة الوَعِل في الشِّعْر الجاهليّ:

لقد آمن الإنسانُ القديم بقوى ماورائية تتحكّم في مصائره، تتّخذ الأفق السماوي مقرًّا لها، ولم يجد مفرًّا من أنْ يجسِّدها مِمَّا هو على الأرض؛ كي يحافظ على توازنه الفكري والنفسي. فالإنسان القديم مجرد شخص عملي غير معقّد يعيش في بيئة محفوفة بالمخاطر، ويواجه باستمرار مواقف محيرة يسعى إلى مواجهتها بالوسائل الطبيعية والخارقة للطبيعة.(٤)

لقد كان انطلاق الإنسان العربي القديم في فكره حول الكون والطبيعة ممتزجًا بين ما هو أرضيّ وما هو سماويّ؛ فالثور القويّ _على سبيل المثال_ وخصمه الصياد، وصراع الثور مع الكلاب لوحةٌ تبرز في قصيدة الرثاء في الشعر الجاهلي، وهي اللوحة نفسها المعلّقة في السماء، ولا ريبَ في أنها لوحة تصدر عن رؤية عقِدية قديمة. ولقد شاهدت الشعوب صيادًا في مجموعة "الجبار" والثور الذي لا يبعد كثيرًا في السماء عن "الجبار" به نجم أحمر ساطع جدًّا هو "الدبران" وبه أيضًا مجموعتان صغيرتان من النجوم تسمّى "القلاص والثريا". فأطلقت الشعوب القديمة اسم الصياد على مجموعة من النجوم، وأطلقوا على المجموعات القريبة منها والأصغر اسم "الكلاب".(٥) فإذا كان الثور يجسّد آلهة القمر عند الإنسان القديم فإنَّ موتَه يعني بالنسبة له الجدب والقحط؛ لأن القمر هو المسؤول عن الخِصب، وبالمقابل فإنَّ الوَعل يجسِّد "عشتر" آلهة الخِصب عند إنسان الجزيرة العربية، وهو "الزهرة" ابن "سين" ربّ الخِصب، وفي ظهوره ونزوله من أعالي الجبال هو بشارة المطر والخِصب، وفي موته بالمقابل الجدب والقحط، بل إنَّ موته يشكِّل نوعًا من الاضطراب الذهني، والفوضى الفكرية لدى الإنسان القديم في قضية الحياة والموت والخلود؛ فالآلهة لا تموت، والوعل واحد من الآلهة التي لا

(١) صيد الوعل في الحضارة ..، ص١٣٠.

(٢) انظر: الصورة في الشعر العربي، ص١٢٤. ومبادئ السّحر عند فريزر: الغصن الذهبي، ص١٠٤_١٠٨.

(3) James.E.O, (1973). The Beginnings of Religion (An Introductory and Scientific Study). New York: Greenwood Press Inc.p 87. وانظر: الصورة في الشعر العربي، ص١٢٤.

(4) James,The Beginnings of Religion, p137.

(٥) باركر، موريس، ما وراء المجموعة الشمسية، ترجمة، إدوار رياض، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ص١٣. كان الناس في الأزمنة القديمة يتصورون أنَّ كلّ مجموعة من النجوم يشاهدونها، كانت لصورة شيء أو شخص، ولقد كان لهذه المجموعة أسماء مختلفة في التاريخ، فالإيطاليون يسمّونها "عربة الصباح". والإسكندنافيون يطلقون عليها "مركبة الثور". انظر: ما وراء المجموعة الشمسية، ص١٠-١١.

تموت؛ لهذا كانت رؤية "الوعل" الرمز الحيواني المقدَّس للآلهة "عشتر" وهو يموت ويفنى، تشكِّلُ حزنًا جماعيًّا لدى الإنسان المؤمن برمزيته المقدَّسة.

يرى "فرانكفورت" أنَّ الأسطورة عندما تقدِّم نفسها في قالبٍ شِعري، مكتظٍّ بالصُّور الشعرية، والتعابير المجازية فإنَّ ذلك بمثابة ثوب اختاره البدائيّ بعناية للفكر المجرّد. فهذه الصُّوَرُ الشعرية _ كما يرى _ لا يمكن فصلُها عن الفِكر؛ إنها تمثِّل الشكل الذي أصبحت التجربةُ فيه واعية بذاتِها.(١) ودراسة الأسطورة في الشعر _ كما يرى النعيمي _ هي دراسة الفكر العربي قبل الإسلام تحديدًا، بوصفها _ أي الأسطورة _ تمثّل جوهره، وجانبًا مهمًّا من جوانبه النفسية والوجدانية، وتصوراته للكون والحياة.(٢)

ولعلَّ الشِّعْر استطاع نبش صورة الإنسان العربي في الجاهلية أكثر ممّا فعله التاريخ. ولم يكن الشاعر الجاهلي، وهو ينسج خيوط الشِّعر، يصدر عن واقعٍ معزولٍ عن ثقافته، وعقيدته، وأخلاقه، بل كان يصدر من خلال وَعْيه وخبرته في الحياة عن واقعٍ مكتظٍّ بمظاهر الحياة، بأفكارها، وهواجسها، وعقائدها، ولعلّ الأخيرة كانت بالغة الأثر في حياة الجاهلي، وقد صدرت في كثيرٍ من أشعاره.

إنّ العالم الداخلي للقصيدة الجاهلية قد تستقر في أعماقه، كما تستقرّ في أعماق قائلها وفي عقله غير الواعي، بقايا مخاوف وأشواق وعبادات تضرب أصولها في التاريخ الموغل في القدم.(٣) وتبدو اللغة في ثوبها القديم كمستحاثات طقوسية. بل إنها تبدو أحيانًا كما لو كانت نفايا طقوسية.(٤) وهكذا تُظهِر لغة الشِّعر الجاهلي هذه المستحاثات، على أنها بقايا طقوسٍ وصلوات يكاد يُظهِر منها الزمنُ خيطًا رفيعًا. ويمكن أنْ نطرح فكرة انتقال هذه المستحاثات عبر الأزمنة السحيقة من خلال تعريف "يونج" اللاوعي الجمعي، إذ يُعَرِّفُه بأنه الجزء من النفس الذي يمكن تمييزه سلبيًّا عن "اللاوعي الشخصي" من خلال حقيقة أنه لا يدين بوجوده للتجربة الشخصية، فهو ليس مكتسبًا شخصيًّا. بينما يتألف "اللاوعي الشخصي" جوهريًّا من محتويات كانت واعية في السابق واختفت من الوعي؛ بسبب النسيان أو الكبت. لم تكن محتويات "اللاوعي الجمعي" يومًا في الوعي، ولم تكن اكتسابًا شخصيًّا بل

(١) فرانكفورت، ما قبل الفلسفة، الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى، ترجمة، جبرا إبراهيم جبرا، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٠م، ص١٨.

(٢) النعيمي، أحمد إسماعيل، الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، ط١، دار سينا، القاهرة ١٩٩٥م، ص١٣.

(٣) مواقف في الأدب والنقد، ص٦٧.

(٤) عبادة إيزيس وأوزيريس ..، ص١٠.

تدين بوجودها للوراثة حصرًا.(١) فـ "يونج" لا يشترط حدوث التجربة على مستوى فردي لكي تستقر في اللاوعي بعد ذلك، ولكنه يفترض إمكانية حدوثها في أزمنة سحيقة من حياة البشرية، بحيث تظهر إسقاطات هذا اللاوعي الجمعي في التعبير الفردي فيما بعد.(٢)

الوَعِل والمطَر:

نظر الإنسان الجاهلي إلى الأمكنة الشاهقة بجلال وقدسية؛ إذ إنها مواطن الآلهة، ومصانع المطر الذي يترقّبه باستمرار؛ لتخصب أرضه، وينبت مرعاه، فضلًا عن أنها توحي إليه بالمنعة والقوّة، فكان أنِ استمدَّ صورة مساكن الوعول، وامتناعها في تلك الأماكن الشامخة، فأضفاها على نفسه؛ إذ تستحضر تلك الصورة في وَعْي المجتمع هالة الجلال والقدسية. وقد وصف عَدِيّ بن زيد العبادي رحلة الوُعُول إلى الجبلِ المُقدَّس، والصّخور المنزلقة التي تُنهِك الوعول في الوصول إلى الأفق الآمِن(٣):

أَسْفَلٌ حُفَّ بالعِضاهِ وأَعْلا هُ صَفَا يُلْغِبُ الوُعُولَ دَلُوقُ

لم يجد النابغة الذبياني لنفسه بَعْدَ وعيدِ النعمان بن المنذر، وتهديدِه، مكانًا آمَنَ من مسكن الوعول، ومصنع الأمطار، فيشبّه منعته في تلك الأماكن العالية بمِنعة الوعول العُصْم التي تعتصم بالجبال(٤)

وحَلَّتْ بُيُوتِي فِي يَفَاعٍ مُمَنَّعٍ تَخَالُ بِهِ رَاعِي الحَمُولَةِ طائِرا

تَزِلُّ الوُعُولُ العُصْمُ عَنْ قُذُفَاتِهِ وتُضْحِي ذُرَاهُ بالسَّحابِ كَوافِرَا

ويقول عَمْرُو بن قَمِيئة متلهِّفًا على شبابه، وواصفًا أيام الشباب الماضية وقوّته عندما كان يُهْبِط الوعول العُصْمَ من أعالي الجبال؛ ليضفي على ماضي شبابه القوّة والمنعة(٥)

يا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى الشَّبَابِ، ولَمْ أَفْقِدْ بِهِ إِذْ فَقَدْتُهُ أَمَمَا

قَدْ كُنْتُ فِي مَيْعَةٍ أُسَرُّ بِها أَمْنَعُ ضَيْمِي وأُهْبِطُ العُصُما

(١) يونج، كارل غوستاف، النماذج البدئية واللاوعي الجمعي، ترجمة، متيم الضائع، ط١، دار الحوار، اللاذقية، سورية ٢٠١٦م، ص٥٨.

(٢) انظر: ثناء الوجود، رمز الأفاعي في التراث العربي، مكتبة الشباب، القاهرة ١٩٨٤م، ص٤٨_٤٩.

(٣) عَدِي بن زيد العبادي، ديوانه، تحقيق، محمد جبّار المعيبد، دار الجمهورية، بغداد ١٩٦٥م، ص٧٩.

(٤) النابغة الذبياني، ديوانه، ص٦٩ – ٧٠ .

(٥) عَمْرُو بن قَمِيئة، ديوانه، تحقيق حسن كامل الصيرفي، ط٢، معهد المخطوطات العربية، القاهرة ١٩٩٧م، ص٤٨ – ٤٩ .

اعتقدَ إنسان المجتمعات القديمة أنّ ما حدث في الأصل قابل للتكرار بقوة الطقوس، فالأساس في نظره أنْ يعرف الأساطير، ليس لأنَّ الأساطير تتيح له تفسيرًا للعالم، ولأسلوب وجوده الخاص فيه فحسب، وإنما لأنها تتيح له، إذْ يتذكرها، قدرة على تكرار ما فعلته الآلهة، أو الأبطال، أو الأسلاف في الأصل.(١) وهو ما فعلَه بشر بن أبي خازم الأسدي حين مارس إحدى الطقوس السحرية في استنزال المطر من الجبل، فقد ورد أنَّه خرج في سنة أَسْنَتْ فيها قومه، وجهدوا. فمَرَّ بصُوَارٍ من البقر، وإجل من الأَرْوَى. فذعرت منه، فركبت جبلًا وعرًا ليس له منفذ. فلما نظر إليها قام على شِعْب من الجبل، وأخرج قوسه، وجعل يشير إليها كأنه يرميها، فجعلت تُلقي أنفسها فَتَتَكَسَّر، وجعل يقول: تتابعي بقر، تتابعي بقر، حتّى تكسَّرت ... ثم قال(٢)

أَنْتَ الذي تَصْنَعُ ما لَمْ يُصْنَعِ
أَنْتَ حَطَطْتَ مِنْ ذُرَى مُقَنَّعِ
كُلَّ شَبُوبٍ لَهَقٍ مُوَلَّعِ

فقد كان تساقط البقر والأروى _ إناث الوعول _ من أعلى الجبال من التعاويذ السحرية الجاهلية المهمة في الاستسقاء.. .(٣) وكثيرًا ما كان الإنسان الجاهلي يترقّب نزول المطر ليلًا؛ حيث ظهور الأبُ إله القمر، والابن "عثتر" أو "عشتر" صانع المطر والخِصب. وتتكرر ثنائية الوعل والمطر، حين تبرز صورة الجبل والسيول التي تُنزِل الوعول من قمم الجبال؛ على أنّ نزول الوعول العُصْم _ رمز الآلهة _ من مسكنها العلويّ إشارة بشرى بنزول آلهة المطر والخِصْب.

وفي الأساطير العراقية القديمة "أكاد وسومر" تُسرَد قصّة نزول الآلهة "عشتار أو عشتر/ انانا" إلى العالم السفلي، وهو ما يقابله عند عرب جنوب الجزيرة العربية، الإله "عثتر"، ويصف الشعر الجاهلي نزول الوعل المعادل الرمزي المقدَّس لـ الإله "عثتر" من الجبال أثناء الأمطار والسيول؛ لتسقي الأرض، وتبعث الحياة في الصحراء، بينما في المقابل، نجد في الرثاء عند شعراء الجاهلية أنَّ موت الوعول معادلٌ لفناء الحياة.(٤)

(١) مظاهر الأسطورة، ص١٧.

(٢) بشر بن أبي خازم الأسدي، ديوانه، تحقيق، عزّة حسن، ط٢، منشورات وزارة الثقافة، دمشق١٩٧٢م، ص٢٣٢، ملحق١٠.

(٣) المطر في الشعر الجاهلي، ص١٦٠.

(٤) وهذا لا يعني أنّ العرب تصوّروا فكرة عالم خاصّ بالموتى شبيه بالعالم السفلي. انظر: محمد عبد السلام، الموت في الشعر العربي، ترجمة، مبروك المنّاعي، ط١، مؤمنون بلا حدود، الرباط، المغرب ٢٠١٧م، ص١٢٢.

لقد صَوَّرَ الشِّعرُ الجاهلي ترقُّبَ الإنسانِ القديم ليلًا السيولَ والأمطار التي تسيل من الجبال، وتَنزُّلَ الوعولِ بالمطر في مشاهدَ متكررة، وصورةٍ تكاد تكون واحدة. إنها مستحاثات طقوسية دينية ضاربة بجذورها في تاريخ الإنسان المقدَّس، تتمظهر في هذه المقدّمات التكرارية، أو قل الصلوات المتوحّدة بالنداء، والبرق، والصّحبة، والسيول، والوعول.. إنها حالة من القلق العام على جدب الأرض، وفناء الإنسان، تستدعي تنبيه الجماعة، ومشاركتهم في الصلاة والدعاء حين يتجلّى "عثتر" في أفق السماء، فتهبط الوعول، ويتنزَّل المطر. إنَّ مشاهد الترقُّب الجماعي ليلًا، وصُوَرَ البرق، وسَحَّ السّيول، وإصرار الشاعر على هبوط الوعول تُشيرُ في رموزها الماثلة في الشعر الجاهلي إلى جذور طقسية ضاربة في القدم، حين كان الإنسان يبحث عن وسائلَ للقدرة على البقاء في ظلّ محيطٍ يخشى خوافيه. فكان الزمنُ الذي يُتَرَقَّب فيه المطرُ واحدًا ومقدَّسًا؛ بظهور كوكب "الزهرة" الإله "عثتر". فامرؤ القيس يشبِّه البرقَ في ليلة الترقُّبِ بمصباح راهبٍ قامَ ليله مصلِّيًا للإله، فيصف قوَّة السَّيْل الذي يجرفُ كل شيءٍ أمامه، لِتَتَنَزَّل الوعولُ العُصْم من علياء، وتُبْعَث الحياة في السهول والوديان[1]

أصَاحِ تَرَى بَرْقًا أُرِيكَ وَمِيضَه كَلَمْـــــعِ اليَدَيْنِ فِي حَبِيٍّ مُكَلَّلِ

يُضِيءُ سَنَاهُ أو مَصَابِيحَ رَاهِبٍ أَمَـــــالَ السَّلِيطَ بالذُّبَالِ المُفَتَّلِ

قَعَدْتُ لَهُ وصُحْبَتِي بَيْنَ ضَارِجٍ وبَيْنَ العُذَيْـــبِ بُعْدَ مُتَأَمَّـــلِ

فأَضْحَى يَسُحُّ الماءَ حَوْلَ كُتَيْفَةٍ يَكُبُّ عَلَى الأَذْقَـــانِ دَوْحَ الكَنَهْبَلِ

ومَرَّ عَلَى القَنَانِ مِن نَفَيَانِهِ فأَنْزَلَ مِنْهُ العُصْـــمَ مِنْ كُلِّ مَنْزِلِ

وفي تَرَقُّبِ لبيد بن ربيعة البرقَ والمطر مع أصحابه ليلًا، يصوّر مرحلتين زمنيّتَيْن، مرحلة أولى: تجلّي الآلهة في السماء، حيثُ الترقّب والتوجّس والأرق في صورةٍ من صوره، ونواح النساء الذي يتضمن معاني الفقد والفناء، فتضجّ النسوة بالدّعاء والبكاء والصلاة، لاستعطاف الآلهة. ومرحلة ثانية: استجابة الآلهة، حيث تهبط الوعولُ المُقدَّسة من مواطنها الجبلية بالأمطار والسيول، فتسقي الأرض، وتخصب الحياة:[2]

أصاحِ ترَى بريقًا هَبَّ وهْنًـــا كمِصباحِ الشَّعِيلَةِ فِي الذُّبـــالِ

(١)امرؤ القيس، ديوانه، تحقيق أنور أبو سويلم، محمد الشوابكة، ط١، مركز زايد للتراث، أبو ظبي ٢٠٠٠م، ج١، ص٢٧٧ – ٢٨٦. الكَنَهْبَل: شجرٌ، وهو أعظم العِضاهِ. القنان: جبل.

(٢) لبيد بن ربيعة، ديوانه، تحقيق إحسان عباس، ط٢، مطبعة حكومة الكويت ١٩٨٤م، ص٨٨_٩١. الإلال: الحراب. المصفحات: الإبل اللواتي قد صفحت عن أولادها أي عزلت عنها. المآلي: الخرق التي تكون مع المرأة تندب بها. الرّضام: حجارة شبه الجزر واحدها رضمة. صاحة: جبل. رمك: سود.

أرِقْتُ لهُ وأنْجَـدَ بَعْدَ هَـــدْءٍ وأصْحَابِي عَلَى شُعَبِ الرِّحـالِ
يُضِـيءُ رَبَابُهُ في المُزْنِ حُبْشًا قِيامًا بالحِـــــرابِ وبــالإلالِ
كـــــأنَّ مُصَفَّحاتٍ في ذُرَاهُ وأنْواحًا عَلَيْهِنَّ المآلِـــــــــي
وأصْبَحَ راسيًا بِرُضامِ دَهْـــر وسالَ به الخمائلُ في الرِّمـالِ
وحَطَّ وُحُوشَ صاحةَ مِن ذُراها كأنَّ وُعُولَها رُمْـكُ الجِمـــالِ

وفي نصٍّ آخر، يتمنى لبيدُ بن ربيعة العامري المطرَ الذي يمثِّله في مخياله بأنه بات يترقّبه، فأنزلَ العُصْمَ من مساكنها الجبلية إلى السّهل. فهذا النصّ لم يقع حقيقةً، وإنما يسرد الشاعر ممارسة الطقس بأحداثها في تسلسلها الدرامي؛ من ترقُّبٍ، وبرقٍ، وهطول المطر، ونزول الوعول، وسَقْي الأرض، وهو يحاكي الأحداث من خلال الكلمة، والكلمة هي المفتاح الأول للتواصل مع الآلهة، وقد اعتقد الإنسانُ القديم بطاقتها الإيحائية، وقدرتها على التحكم بظواهر الطبيعة، وفي الوقت نفسه لم تكن الكلمةُ مفرغة من طقسٍ يصاحبها ويفعِّلها، والشاعر هنا إذ يمثِّل تسلسل الأحداث بالكلمات فإنما يمارس طقس الاستسقاء، متضرّعًا للآلهة من أجل المطر، ومع المطر تتجلَّى الوعول:(١)

يـــا هَلْ تَرَى البَرْقَ بِتُّ أَرْقُبُهُ يُزْجِي حَبِيًّا إذا خَبَا ثَقَبا
فجَادَ رَهْوًا إلى مداخلَ فالصُّحْـ ـرَةَ أَمْسَتْ نِعاجُهُ عُصَبَـا
فَحَدَّرَ العُصْمَ مِنْ عَمَايَةَ للسَّهْـ ـلِ وقَضَّى بصاحَةَ الأَرَبا
فالمَاءُ يَجْلُو مُتُونَهُنَّ كَمَـــا يَجْلُو التلاميذُ لُؤْلُؤًا قَشِـبا

كما يتحدث سُحَيْم عَبْد بني الحَسْحَاس عن البرق الذي يُضِيء مواطن الآلهة، حيثُ الجبالُ التي تطال السُّحب، وحيثُ تعيش الوعولُ آلهة المطر والخِصب، فتَتَنَزَّلُ الأمطار والسُّيول منه(٢)

فَدَعْ ذا، ولكِنْ هَلْ تَرَى ضَوْءَ بَارِقٍ يُضِـيءُ حَبِيًّا مُنْجِدًا مُتَعَالِيـــــا
يُضِـيءُ سَنَاهُ الهَضْبَ هَضْبَ مُتَالِعٍ وحُبَّ بِذاكَ الهَضْبِ لَوْ كَانَ دَانِيا
نَعِمْـــتُ بِهِ عَيْنًا وأَيْقَنْتُ أَنَّـــهُ يَحُطُّ الوُعُولَ والصُّخُورَ الرَّواسِـيا

(١) لبيد بن ربيعة العامري، ديوانه، ص٢٩ – ٣١. حَبِيًّا: سحابًا. خَبَا: سكنَ. ثَقَبا: أضاء. رَهْوًا: ساكنًا. عُصَبَا: قطعًا. صاحَة: جبل. التلاميذ: غلمان الصاغة.

(٢) سُحَيْم عَبْد بني الحَسْحَاس، ديوانه، تحقيق أنور أبو سويلم، ط١، دار جرير، الأردن٢٠١٤م، ص٢٠١ – ٢٠٢. حبيّا: عاليًا على وجه الأرض. منجدًا: من ناحية نَجْد. متالع: جبل في أرض قيس.

ويقول تميم بن أبيّ بن مقبل في وصْف البرق الذي لاح من تهامة واليمن، والأمطار والسيول التي أنزلت الوعول من أعالي الجبال(١)

تَأَمَّلْ خَلِيلِي هَلْ تَرَى ضَوْءَ بَارِقٍ يَمَـــــانٍ، مَرَتْهُ رِيـــحُ نَجْدٍ فَفَتَّرَا
مَرَتْهُ الصَّبَا بالغَوْرِ غَوْرِ تِهَامَـةٍ فَلَمَّا وَنَتْ عَنْهُ بِشَعْفَيْنِ أَمْطَـــــرَا
يَمَانِيَةٌ تَمْـرِي الرَّبَـابَ كَأَنَّـــــهُ رِئَـالُ نَعَامٍ بَيْضُـــــهُ قَدْ تَكَسَّـــرَا
وطَبَّقَ لَوْذَانَ القَبَائِلِ بَعْدَمَـــــا سَقَى الجِزْعَ مِنْ لَوْذَانَ صَفْوًا وأَكْدَرَا
فَأَمْسَى يَحُطُّ المُعْصِمَاتِ حَبِيُّـهُ وأَصْبَحَ زَيَّافَ الغَمَامَـــةِ أَقْمَـــــرَا

الوَعِل والأنثى:

تظهر الأنثى على مرّ الأحداث الميثولوجية في التاريخ القديم صورةً للجِنس والخِصب، وتقوم بدور خطير للغاية في متوازنات القحط والخِصب، والحياة والموت، وقد ظهر بعض الحيوان رفيقًا لها في ثنائية الجِنس والخِصب؛ كالثور، والحصان، والوعل .. لمَا يرمز إليه ذلك الحيوان من معاني الفحولة والخصوبة. ولقد بدا الوَعِلُ في الميثولوجيا الحيوانَ المقدَّس للآلهة الأنثى، ورمزًا للخصوبة. وإذا كان الرجال في التاريخ القديم يتعبّدون المرأة، فإنهم يتعبّدون فيها الخصوبة؛ إذ كانت نموذجًا في حبلها كما الأرض في حملها، ونماء نباتاتها.(٢)

وفي اللغة يقترن الوعل بالماء؛ فتُسَمَّى أنثى الوعل بـ "الأروى"، ومنها سُمِّيَت المرأة "أَرْوَى"، والرَّاويةُ: مَزَادَةُ الماء. ويَوْم التَّرْوِيَة عند المسلمين في طقوس الحجّ. والرَّوِيُّ: سحابةٌ عظيمةُ القَطْر، شديدةُ الوَقْع. وجَبَلُ الرَّيَّانِ: بِبِلادِ طَيِّء؛ سُمِّيَ به لأنه لا يزال يَسيلُ منه الماءُ. وماءٌ رَوَاءٌ: إذا كانَ لا يَنْزَحُ، ولا ينقطِعُ. والرَّوُّ: الخِصْبُ.(٣) يقول الجاحظ: والأرْوَى: إناث الأوعال، واحدتها أرويّة. والنّاسُ يُسمُّون بناتِهم باسم الجماعة ... لا يسمُّون بأرويَّة، ويسمُّون بأروَى.(٤)

(١) تميم بن أبيّ بن مقبل، ديوانه، تحقيق عزّة حسن، مطبوعات مديريّة إحياء التراث القديم، دمشق ١٩٦٢م، ص١٢٩، ١٣٠، ١٣٢. مرَتْه: استدرّتْه وأنزلت منه المطر. فَتَّرا: تحيّر لا يسير وتهيّأ للمطر. شعفان: أكْمَتان في نَجْد. الرّئال: جمْعُ رَأْل، وهو الحَوْلِي من ولد النّعام. لوذان: اسم موضع، جبل أو واد. الحَبِيّ: السّحاب الذي يتراكم بعضه فوق بعض. زيّاف: سريع في سَيْرِه.

(٢) فريشاور، بول، الجنس في العالم القديم، ترجمة، فائق دحدوح، ط١، دار علاء الدين، دمشق ١٩٩٣م، ص٣٨.

(٣) انظر: تاج العروس، تحقيق، عبد الصبور شاهين، ط١، الكويت ٢٠٠١م، ج٣٨، مادة: روي. والحموي، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (٦٢٨هـ / ١٢٢٩م): معجم البلدان، تحقيق، فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٣، ص١٢٥.

(٤) الحيوان، ج٣، ص٤٩٨.

ولقد لفتت أنثى الوَعل الإنسانَ الجاهلي بأنوثتها وجمالها. وكان أنِ ارتبطت "الأرْوَى" أنثى الوَعِل في الشِّعر الجاهلي بأنثى الإنسان، من حيث بُعْد المنزلة والتمنّع من جهة، والجمال والجِنس والخصوبة من جهة أخرى، وكان الشاعر الجاهلي ينظر إلى "المرأة" في رمزها المقدَّس إلى الجِنس والخصوبة أيضًا حين يربطها بأنثى الوَعل، يقول الشَّنْفَرَى في لاميّته مشبِّهًا الأواري بالفتيات العذارى بلبسهنّ الطويل الملوَّن(١)

تَرُودُ الأَرَاوِي الصُّحْمُ حَوْلِي كأنَّها عَذَارَى عَلَيْهِنَّ المُلاءُ المُذَيَّلُ

وتتداخل صورةُ "الأروى" أنثى الوَعِل وصورة "الأروى" أنثى الإنسان، إذ يرصد الشمّاخ بن ضرار الذبياني سلوك الحبيبة في سلوك أنثى الوعِل؛ من العلوّ والتمنّع، والهروب من الصياد كما تفعل الحبيبة حين تهرب من الوصال(٢)

كِلَا يَوْمَيْ طُوالَةَ وَصْلُ أَرْوَى ظَنُونٌ آنَ مَطَّــرَحُ الظَّنُونِ
ومَــا أَرْوَى وإنْ كَرُمَتْ عَلَيْنا بِأَدْنَـــى مِنْ مُوَقَّفَةٍ حَرُونِ
تُطِيفُ بِها الرُّمــاةُ وتَتَّقِيهِم بِأَوْعـــالٍ مُعَطَّفَةِ القُرُونِ
وماءٍ قَدْ وردْتُ لوَصْلِ أَرْوَى عليهِ الطَّيْرُ كالوَرَقِ اللَّجِينِ

أمَّا سُويد بن أبي كاهل اليشكري فإنّه يسهر الليل، يراقب طلوع النّجم، حيث تتجلّى الآلهة في السماء، ويتجلّى حُبُّ سلمى على الأرض، وحين تتجلَّى المرأة يُصِرُّ الشاعرُ على هبوط الوعول من علياء الجبل. هذا الإصرار _ في عُمقِه الدّينيّ _ ممارسة سحرية بالكلمات لاستنزال المطر؛ حيث تَتَنَزَّلُ آلهة المطر والخِصب "عشتر" متجسِّدة في رمزها المُقدَّس "الوَعِل"، وحيث تتجلَّى محبوبة الشاعر "سلمى" ذات الجمال فتُتَنَزِّل الوَعل، رمز الخصوبة من عليائه(٣)

(١) لاميّة العرب، ص٦٤ – ٦٥. وانظر: الشَّنْفَرَى، ديوانه، ص٧٢ – ٧٣. الصُّحْم: السواد الضارب لونها إلى الصّفرة، وقيل: الحمراء الضارب لونها إلى السّواد. الملاء: ضرب من الثياب. المذيّل: الطويل. يركدن: يثبتن. العصم: هو الذي في ذراعيه بياض، وقيل في إحدى يديه بياض. أدفى: الذي طال قرنه جدًّا. الكيح: عرض الجبل. الأعقل: الممتنع.

(٢) الشمّاخ بن ضرار الذبياني، ديوانه، تحقيق، صلاح الدين الهادي، دار المعارف، القاهرة، ص٣١٩_٣٢٠. طُوالَة: موضع. أرْوى: اسم المحبوبة. الظنون: كلّ ما يوثق به من ماءٍ أو غيره. موقفة حرون: يريد هنا الأروية، أنثى الوعول، والتوقيف هو البياض مع السواد، والحرون من الدواب التي إذا استدرّ جرْيها وقفت فلم تبرح، والمراد هنا: الأروية التي لا تبرح أعلى الجبل حذرًا من أن تُصاد.

(٣) سُويد بن أبي كاهل اليشكري، ديوانه، تحقيق، شاكر العاشور، ط١، ١٩٧٢م، ص٢٥. اليفع: المرتفع.

فأَبِيتُ اللَّيـــلَ ما أَرْقــدُه وبِعَيْنَيَّ إذا النّجــمُ طلـــعْ
فدَعانِي حُبُّ سلمى بَعْدَ ما ذهبَ الجـــدّةُ منِّي والرّيَــعْ
خَبَلَتْنِي، ثمّ لمّـــا تَشْفِنِـي فَفُؤَادِي كُلَّ أَوْبٍ مَا اجْتَمَــعْ
ودَعَتْنِي بِرقاهـا، إنَّهـــا تُنْزِلُ الأَعْصَمَ مِن رأْسِ اليَفَعْ

يكثِّف حميد بن ثور الهلالي، صورة الجمال لدى المحبوبة، في سلوك الوَعل، رمز الفحولة والخِصب تجاه ربّة الخِصب "الأنثى"؛ إذ يقدِّر فتنة المحبوبة الأنثى بمدى تهوُّر الوَعِل في النّزول من الجبلِ من أجل هذه الأنثى، غير مبالٍ بترصُّدِ الموت له من الصياد، "إذ إنَّ الخيال الشعري الخلاق يحيل المرأة إلى مصدر للخير والخِصب، بحيث يصير تعلّق الشاعر بها وعشقه إياها، تعلّقًا بمعاني توليد الحياة والثمر".(١) يقول(٢)

فَلَوْ أنَّهـــا كانَتْ بَدَتْ يَوْمَ حَيَّةٍ لِمُنْعَطِفِ القَرْنَيْنِ وَعْرٍ مَطَامِرُهْ
مِنَ الهَائِباتِ السَّهْلَ فِي مُشْمَخِرَّةٍ بِحَيْدٍ وعُولٍ يَأْمَنُ القَــوْمَ فَادِرُهْ
أَتاهَا ولَوْ قامَ الرُّماةُ وسَـــــاقَهُ حِبالُ الصِّبا حَتَّى تَحِينَ مَقادِرُهْ
تَهادَى كَسَيْلِ الرَّكِّ يَجْرِي حَبابُهُ بِبَطْحاءَ ذِي وَعْثٍ قَلِيلٍ نَهابِرُهْ
خَلُوبٌ لِأَلْبابِ الرِّجـالِ بِدَلِّهـــا حِماهَا حَرَامٌ أنْ تُحَلَّ مَحَاجِرُهْ

يتجه النابغة الذبياني بالصورة الشعرية إلى منحىً آخرَ، حين يضفي صورة دِينيّة قديمة، ويجمع في النصّ مقدَّسات الخِصب (المرأة (ربّة الخِصب) / الراهب الأشيب المتعبِّد (صانع المطر)/ الوعول (رمز الإله عشتر "إله المطر والخِصب") مستمدًّا صورة الراهب المعتكف في صومعته الذي صام عن النساء، ولم يحرِّك غريزتَه جمالُ المرأةِ، ولا فتنتُها، لكنَّه أمام جمال المرأة التي يصفها الشاعر، وحُسْن حديثها سيُعطِّل هذا الراهب لغةَ الصمت، واعتزالَ الناس، وينجذب إلى هذه المرأة، بل إنَّ إناثَ الوعول نفسَها تغامر بنزولها من الجبل، منجذبةً إلى هذا الجمال. كما أنَّ الحديثَ عن الشَّعْر

(١) محمد أحمد بريري، الليل والنهار، في معلقة امرئ القيس، مجلة فصول، القاهرة، م١٤، ع٢، ١٩٩٥م، ص٢٢.
(٢) حميد بن ثور الهلالي، ديوانه، تحقيق، محمد شفيق البيطار، ط١، التراث العربي، الكويت ٢٠٠٢م، ص١٠٠.
حَيَّةٍ: من مخاليف اليمن، وجبل من جبال طيّئ. مُنْعطفِ القَرْنَيْنِ: أراد به الوعل. مَطَامِر: اسم مكان. الهَائِباتِ السَّهْلَ: الوعول تتّقي السهل والنزول إليه؛ خشية الصيادين المُشْمَخِرَّة: الجبال العالية. حَيْد الجبل: الحرف الشاخص الذي يخرج منه كأنّه جناح. الفادِر: الوَعِلُ المُسِنُّ العاقِل في الجبل؛ أي اللاجئ فيه. تهادَى: تَتَمايَلُ في مَشْيتِها. الرَّكُّ: المطرُ القليل. حبابُ السَّيْل: الفقاقيعُ التي تطفُو عليه. الوَعْثُ: الرَّمْلُ القليل. النَّهابِرُ: جَمْعُ النُّهْبُرَةِ، وهي الحُفْرَةُ العميقة. المَحاجِرُ: جَمْعُ المَحْجَرِ، وهو الحِمى.

عند المرأة إشارةٌ إلى الخصوبة نفسها، حيثُ يجسِّد الشَّعْر عبادة الخصوبة عند الإنسان القديم. وهو إذ يضع "الأراوي" مع المرأة فإنما يكثِّف مشهد الخصوبة، ليصبح أكثر جاذبية. يقول[١]

لَوْ أنَّها عَرَضَتْ لِأشْمَطَ راهبٍ عَبَـدَ الإلـــهَ صَـــــرُورَةٍ مُتَعَبِّدِ
لَرَنـــا لِرُؤْيَتِها وحُسْنِ حَدِيثِهـا ولَخَالَـــه رَشَـــدًا وإنْ لم يَرْشُـــدِ
بِتَكَلُّمٍ لو تستطـيعُ كلامَـــــهُ لَدَنَتْ لَهُ أَرْوَى الهِضابِ الصُّخَّدِ
وبِفاحِمٍ رَجْـــــلٍ أَثِيـثٍ نَبْتُـه كالكَرْمِ مالَ علَى الدِّعامِ المُسْـنَدِ

ويتابع النابغةُ الذبياني في نصٍّ آخرَ فكرة الخِصب؛ بضَحِكِ المرأة وتبسُّمِها، بقوله[٢]

وإنْ ضَحِكَتْ لِلْعُصْمِ ظَلَّتْ رَوَانِيًا إليها وإنْ تَبْسَمْ إلى المُزْنِ يَبْرُقِ

أمَّا العبّاس بن مرداس فإنَّه يختار صفة أخرى في المرأة تُهْبِط الوعول من الجبال، وهو الأُنس، يقول:[٣]

لَيالِيَ سَلْمَى لا أرَى مِثْلَ دَلِّها دَلالًا وأُنْسًا يُهْبِطُ العُصْمَ آنِسَا

أمَّا "دهماء" المرأةُ، محبوبة تميم بن أبيّ بن مقبل فيدعو لها الشاعر بسقيا المطر الذي يُهبِط الوعول؛ لأنَّ هبوط الوعول يرمز إلى الصلاة لها؛ من أجل أنْ تخصب حياة المحبوبة أينما كانت، وأينما بَعُدَ مكانها عن الشاعر[٤]

أبَى القَلْبُ إلّا ذِكْرَ دَهْماءَ بَعْدَمَـا غَنِينَا، وأضْحَى حَبْلُها قَدْ تَبَتَّرَا
سَـــقَاهَا، وإنْ كَانَتْ عَلَيْنَا بَخِيلَةً، أَغَرُّ سِمَاكِيٌّ أَقَـــــادَ وأَمْطَرَا
تَهَـــــلَّلَ بِالغَوْرَيْنِ غَوْرَيْ تِهَامَةٍ، وحُلَّتْ رَوَايَاهُ بِنَجْدٍ وعَسْـكَرَا
وبَاتَ يَحُطُّ العُصْمَ مِنْ أَجْبُلِ الحِمَى وهَمَّتْ رَوَاسِي صَخْرِهِ أنْ تَحَدَّرَا

(١) النابغة الذبياني، ديوانه، ص٩٥_٩٦. الأشمط: الأشيب. الصَّرورة: اللازم لصومعته، والذي لا يأتي النساء. رنا لرؤيتها: أدام النظر إليها. الهضاب الصُّخَّد: الجبال الصغار الملساء. بفاحِمٍ رَجْلٍ: الشَّعْر الشديد السواد. الرَّجْل: المُرَجَّل المَمْشُوط. الأثيث: الكثير الذي ركب بعضُه بعضًا.

(٢) النابغةُ الذبياني، ديوانه، ص١٨١.

(٣) العبّاس بن مرداس، ديوانه، تحقيق، يحيى الجبُّوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص٩١.

(٤) تميم بن أبيّ بن مقبل، ديوانه، ص١٤٢، ١٤٤، ١٤٥. غَنِينا: أي افترقْنا، وغَنِي أحدنا عن الآخر. تبتّر: أي انقطع. أقاد: اتّسع وتقدَّم. عسكر: موضع في رسْم الفُرُع بين مكّة والمدينة.

الوَعِل والموت:

شغلت فكرة الموت الإنسان القديم، وأربكت حضوره ووجوده في الحياة، وسعى إلى تجاوز ذلك بأنْ أقام الطقوس لآلهةٍ توهَّمَ أنْ يجدَ الخلاصَ فيها مِن تلك الربكة. وقد أثَّرت فكرة الموت في حياة الإنسان القديم في مجالين؛ في الأول، وفيما قبل حدوث الموت، حاول عن طريق العقل فهم فكرة الموت وتفسيرها، ومِن ثَمَّ تحديد موقفه منها، وفي الثاني، فيما بعد حدوث الموت، مارسَ عمليًّا التخلّص من الجثّة، ومِن ثمّ ممارسة الطقوس الخاصة بالموت.(١)

في النّصّ الأكادي، حاول جلجامش أنْ يُظْهِر شجاعته أمام صديقه "إنكيدو" في قضية الموت، وأنْ يبحث عن خلود آخر غير الجسد؛ بتخليد اسمه وذِكْره، فالآلهةُ فقط الذين يستحقون الاستمرار في الحياة، أمَّا مخلوقاتهم فمصيرها الموت:(٢)

الآلهة هم الخالِدون في مرْتَع الشّمس، أمَّا البَشَر فأيّامهم معدودات ..

....

وعندما مات صديقه "إنكيدو" بدأت رحلة الإنسان في البحث عن ماهية الموت(٣)

صَدِيقي الذي أحْبَبْتُه جَمًّا ومضَى مَعِي عبْرَ المَهَالِك

أدْرَكَه مَصِيرُ البَشَر

فانْتَابَنِي هَلَعُ المَوْت حتَّى همْتُ فِي البَرَارِي

كانت عملية قَتْل الآلهة في الأساطير الرافدينية القديمة التي تُنَفَّذُ مِن آلهةٍ أخرى في أحداث تدمير عنيفة، تتعلق بعملية التكوين والظواهر الطبيعية، ولم تكن نتيجة لحلول أَجَلِ الآلهة. كما أنَّ نزول "عشتار" إلى العالم السفلي لم يكن موتًا بشريًّا؛ بانفصال الروح عن الجسد، وإنما كان موتًا للطبيعة والخِصْب.(٤) ليتشكَّل الوَعْي الشِّعري عند الجاهلي في رثائِه نفسَه، ورثائِه الآخرَ القريبَ والحبيب، مِن ازدواجية الموت؛ موت الجسد، وموت الطبيعة، ليُعيد تشكيله وفق الصورة الدينية لمجتمعه.

(١) انظر: نائل حنّون، عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٦م، ص٢٧.

(٢) السواح، جلجامش، ط٢، دار علاء الدين، دمشق ٢٠٠٢م، ص٤٧.

(٣) جلجامش، ص٦٣_٦٤.

(٤) عقائد ما بعد الموت ..، ص٥٣ و ص٥٦.

كان أمية بن أبي الصلت، حين وافته المنية، تمنى أن يكون مع الوعول حيث تسكن؛ حتى لا يلحقه الموت؛ إذ اعتقدت العرب بخلود الوعل:(١)

لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ ما بَدَا لِي فِي قِلالِ الجِبالِ أَرْعَى الوُعُولا

يشتغلُ الشاعرُ الجاهلي في قضية الموت على عناصر الطبيعةِ المُقدَّسة، بوصفِها عناصر رامزة من شأنها أنْ تُخفِّف من مأساة الواقع، أو قُل من شأنها أنْ تمنحه شيئًا من المواراة والمواربة في سبيل أنْ ينجوَ بنفسه مِن مرارة الانهيار والفقد. فالعُلُوُّ الذي يتطلَّع إليه الإنسانُ القديم، على أنَّه مسكنُ الوعول الخالدة يمكن أنْ يطالَه الموتُ. ولكنْ هل يطالُ الموتُ رموز الآلهة؟! وهلِ الإجابةُ _ بأنه يفعل ذلك _ اعترافٌ عقِديٌّ بمَوْت الإله أو أنَّه محاولة للتّواري عن مأساة الجسد الإنساني؟

يتّخذ الشاعر الجاهلي عَمْرُو بن قَمِيئة رموز الآلهة مسوِّغًا قويًّا لمَوْتِ بني البشَر، حين يصف إدراكَ المَوْتِ التّمساحَ والوَعل*، وهُما الرمزان المُقدَّسان للآلهة عند الإنسان القديم(٢)

لا عَجِيـــبٌ فِيما رَأَيْتِ، ولكنْ عَجَـــبٌ مِنْ تَفَرُّطِ الآجَـــالِ

تُدْرِكُ التِّمْسَحَ المُوَلَّعَ فِي اللُّجَّـ ـةِ، والعُصْمَ فِي رُؤُوسِ الجِبالِ

يحاولُ الوَعْيُ الشِّعريّ أنْ يُعيدَ تشكيل واقعِه حين يُنَظِّر لفكرة الموت، بتوظيفِه رموزًا دينية؛ لتُسهمَ بشكلٍ كبير في بلورة حقيقة الموت عند الإنسان الجاهلي، وتُخفِّفَ مِن شدّة وَقْعِها المدوِّي عليه.

يؤمن الشاعر الجاهلي بأنَّ ظاهرة الموت حقيقةٌ فاعِلة ومستمرة، لكنَّ فكرة موت الآلهة التي تهبه المطرَ والخِصب، بالنسبة له، صادمة ومربكةٌ؛ إذ إنَّ في موتِ الوَعِل رمزِ الآلهة "عشتر" موتًا للطبيعة والخِصب؛ من هنا كان حضورُ الوَعِل مع فكرة الموت الإنساني تتكرر كثيرًا في الشِّعر الجاهلي، فالشاعرُ يُنَظِّرُ لفكرة الموت، بشكلٍ عام، بموت الوَعِل المُقدَّس الذي يسكنُ الجبال، حيث موطنُ الآلهة، والذي اعتقد فيه الإنسانُ العربي القديم الخلودَ والأبدية، وإذ يفعل الشاعر الجاهلي ذلك إنما يرثي ذاته، ويبكي الطبيعةَ حياتَها، والأرضَ خِصبَها. يشير النَّمر بن تَوْلَب إلى هذا التنظير، بقوله(٣)

فَلَوْ أنَّ مِنْ حَتْفِهِ نَاجِيًا لأَلْفَيْتَهُ الصَّدْعَ الأَعْصَما

(١) أمية بن أبي الصلت، ديوانه، ص٤٥١. القِلال: مفردها قُلَّة، وهي أعلى الجبل.

(٢) عَمْرُو بن قَمِيئة، ديوانه، ص٦٦. التِّمْسح: التِّمساح. المُوَلَّع: الذي به توليع؛ نُقَط تُخالف سائر لونه. * وُجِدت عبادة التّمساح في مراكز عدّة في مِصر. انظر عبادة التمساح: لوركر، مانفرد، معجم المعبودات والرموز في مصر القديمة، ترجمة، صلاح الدين رمضان، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة ٢٠٠٠م. ص٩٠_٩١.

(٣) النَّمر بن تَوْلَب، ديوانه، تحقيق، نوري القيسي، مطبعة المعارف، بغداد. ص١٠٣.

وتبرز قضية الموت مرتبطة بحيوان الوعل، عند لبيد بن ربيعة، حيثُ يقرر أنَّ موتَ الوَعل هو فناء كُلِّ شيء؛ ليس بصفتِه الحيوانية، وإنما بصفتِه الدِّينيّة، وقيمتِه الألوهيّة المباركة في الطبيعة والأرض(١)

لَوْ كَانَ شَيْءٌ خَالِدًا لَتَوَاءَلَتْ عَصْمَاءُ مُؤْلِفَةٌ ضَوَاحِيَ مَأْسَلِ

وفيما بعد الموت، موت الإنسان، يوظِّف المُرَقِّش الأكبر عناصر الطبيعة المُقدَّسة؛ الجبل والوَعِل، في بلورة حقيقة الموت، حين يرثي ابنَ عمِّه الذي قُتِل في إحدى الحروب. إنه يُعيد تشكيل واقعه المأساوي بصورةٍ دِينية تلتفُّ على فجائعية الموت؛ حيثُ يومًا يَزِلُّ الوَعِلُ _ وهو الخالِد _ عن سمائِه مهما طالَ بهِ العُمر(٢)

لَوْ كَانَ حَـيٌّ ناجِيًا لَنَجَـــا مِنْ يَوْمِهِ المُزَلَّمُ الأَعْصَمْ
فِي باذِخـاتٍ مِنْ عَمَايَةَ أَوْ يَرْفَعُهُ دُونَ السَّـماءِ خِيَمْ
مِنْ دُونِهِ بَيْضُ الأَنُوقِ وفَوْ قَهُ* طوِيلُ المَنْكِبَيْنِ أَشَمّْ
يَرْقَاهُ حَيْثُ شَـــاءَ مِنْهُ وإِ مَّا تُنْسِـــهِ مَنِيَّةٌ يَهْـــرَمْ
فَغَالَهُ رَيْبُ الحَـوادِثِ حـ تَّى زَلَّ عَنْ أَرْيادِهِ فَحُطِمْ

يرثي صَخْرُ الغَيِّ بنُ عبدالله الخُثَعميُّ ابْنَه تَلِيدًا؛ على أنَّ ابنَه ليس خالِدًا كالوَعل المُقدَّس الذي يعتصم بالجِبال المُقدَّسة، وبالرغم من ذلك فإنَّ الوَعل يموت(٣)

(١) لبيد بن ربيعة، ديوانه، ص٢٧٢. تواءلت: نَجَتْ. الضواحي: من كلّ شيءٍ نواحِيه البارزة. مأسل: اسم جبل. مؤلفة: أي تألف الإقامة، وتلزمها.

(٢) الضَّبِّي، المُفَضَّل بن محمد بن يعلى (هـ ١٦٨/ ٧٨٤م): المُفَضّلِيّات، تحقيق أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون، ط٨، دار المعارف، القاهرة، ص٢٣٨ – ٢٣٩. المُزَلَّمُ: الوَعِل اللطيف الخلق المجتمع. الأعصم: الذي في يديه بياض. الباذخات: الجبال الطوال. عماية وخيم: جبلان. الأنوق: الرخم، وهو لا يبيض إلا في أبعد ما يقدر عليه من الأمكنة. طويل المنكبين: يريد جبلًا. الأشم: المشرف. تُنْسِه: تؤخره. الأرياد: جمع ريد، وهو الشمراخ الأعلى من الجبل.

* وردت الكلمة في المصدر السابق هكذا: "قَوْقَه" بالقاف، وهو خطأ طباعي، والتصحيح مِن كتاب: ابن ميمون، محمد بن المبارك بن محمد (بعد ٥٨٩هـ/ بعد ١١٩٣م): منتهى الطلب من أشعار العرب، تحقيق، محمد نبيل طريفي، ط١، دار صادر، بيروت ١٩٩٩م، ج٤، ص٦٣.

(٣) شرح أشعار الهذليين، ج١، ص٢٨٧. الفراسِن: الأكارِع. والخِدام: البَياض.

أرَى الأيّامَ لا تُبْقِي كَرِيمـــــاً ولا العُصْمَ الأوابِدَ والنَّعامَا

ولا العُصْمَ العَوَاقِلَ فِي صُخُورٍ كُسِينَ عَلَى فَرَاسِنِها خِدَامَا

أمَّا البُرَيْق بن عياض الخُناعِيّ فيرثي أخاه، ويدعو له بالسقيا والمطر الذي يُنزِّل الوعول من الجبال، وهو ما يتناسب هنا مع الدّعاء بنزول الآلهة للرحمة(١)

سَـقَى الرحمنُ حَزْمَ نُبائِعاتٍ مِنَ الجَـوْزاءِ أنْـــوَاءً غِزارَا

بِمُرْتَجِزٍ كـــــأنَّ على ذُراهُ رِكابَ الشَّأْمِ يَحْمِلْنَ البُهارَا

يَحُطُّ العُصْمَ مِنْ أكْنافِ شِعْرٍ ولَمْ يَتْرُكْ بِذِي سَلْـعٍ حِمارَا

وفي بكائيات الموت تبرز صورة الصيّاد المُتَرَبِّص بسِهامِه التي تخترق جسد الوَعِل، وتقتله. وقد ذكر ابن رشيق أنَّ من عادة القدماء أنْ يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك الأعِزّة، والأمم السالفة، والوعول الممتنعة في قُلَل الجبال ... .(٢) وارتباطُ الوُعُولِ بالملوك ارتباطٌ ديني مشترك في صناعة الخِصب؛ فقد كانت الأمم القديمة تقدِّس ملوكها؛ لأنها تعتقد فيها القدرة على صناعة المطر، كما اعتقدت في الوَعل، وكانت معظم الطقوس التي تمارسها الأمم القديمة للاستمطار تتركز في قضية صانع المطر؛ إذ يشير فريزر إلى أنَّ امتلاك القدرة على صنع المطر يُعدّ من أهمّ الأمجاد الرئيسة التي يمكن أن تُنسب إلى الرؤساء والأبطال القدامى، وهي أصل نظام الرياسة؛ فيعتقد البانجار في غرب إفريقيا _ على سبيل المثال _ أنّه يمكن للملك أنْ يجلب لهم المطر أو الطقس المعتدل حين يشاء؛ لذا يُغْرِقونه بالهدايا من الماشية والحبوب، بل إنَّ بعض القبائل لا تعترف بملكية الأشخاص إلا الذين يمتلكون القدرة على استنزال المطر في الوقت المناسب، ويطلقون عليهم ملوك المطر.(٣) وقد حملتْ أسماءُ بعض ملوكِ العرب وزعمائها فكرة الماء والمطر؛ من ذلك قالوا لرجلٍ من الأزد "ماء السماء"؛ لأنه كان إذا قحط القطر احتبى، فأقام ماله مقام القطر، فسُمِّيَ: ماء السماء.(٤) وليست صورة صيد الوَعِل _ الضحيّة المُقدَّسة _ أو قتلِه مجرّد عادةِ مَثَلٍ على ألسنةِ الناس، وإنما هي ممارسة دينية قديمة، وإنْ تُنُوسِيَ أصلُها القديم، تصاحبُها طقوسٌ وشعائرُ، واحتفالاتُ رقصٍ وغناء،

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٢، ص٧٤٢. نبائعات: بلدة. مرتجز: يَرْعُد. البهار: متاع البحر. شِعر: جبل. سلع: جبل.

(٢) ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق الأزدي (هـ ٤٥٦/ ١٠٦٣م): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق، النبوي عبد الواحد شعلان، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة ٢٠٠٠م، ج٢، ص٨٣٦.

(٣) انظر: الغصن الذهبي، ص٣١٥ وص٣١٧ وص٣٧٦.

(٤) ابن قتيبة، أبو محمد، عبدالله بن مسلم الدينوري (هـ ٢٧٦/ ٨٨٩م): المعارف، تحقيق، ثروت عكاشة، ط٤، دار المعارف، مصر، ص٤٦٧.

ويُعَدُّ لَحْمُ الضحيةِ طعامًا مُقدَّسًا تنتقلُ، من خلال تناولِه، إلى الصيادين، الصفاتُ السامية التي تتصف بها الضحية المُقدَّسة، وصيدُ الحيوان المُقدَّس إذا لم يُراعَ فِيهِ الطقوس فهو صيدٌ مُدنَّس، يجلبُ لعنةَ الآلهة وغضبَها، ويُنْبِئ بعهدٍ قاحِط، يحتبِسُ فيه المطرُ؛ وتموتُ المراعِي، وتقحلُ الطبيعة؛ لهذا كان الإنسانُ القديم يمارس الطقوس والشعائر الدينية أثناء عملية الحصاد؛ تجنّبًا لسخط الآلهة، وجلبًا لرضاها، وهو ما يبعث الرّضا النفسي عنده.

يستحضِرُ الشاعرُ الجاهليّ قَتْلَ الوَعِل في رثائِه الإنساني، ويرصد عملية قتْلِه، وهو إذ يفعل ذلك فإنما يخفِّف من حدّة كارثته الإنسانية؛ بالحديث عن موتِ الوَعِل الخالد في الجبال، فيبكي سَاعِدَةُ بنُ جُؤَيَّةَ الهُذَلِيّ نفسَه إثرَ قَتْلِ بعضِ قومِه في الحرب، وهو يتفجَّع على نفسِه الصائرةِ إلى الهرم شيئًا فشيئًا، لينقضّ عليها الموتُ. إنَّه واقعٌ مُنَغَّصٌ بالضّعف والانكسار والهزيمة أمام سريان الزمن، وجبروت الواقع، يقول(١)

يا لَيْتَ شِعْرِي أَلا مَنْجَى مِنَ الهَرَمِ أَمْ هَلْ عَلَى العَيْشِ بَعْدَ الشَّيْبِ مِن نَدَمِ

والشَّيْبُ دَاءٌ نَجِيسٌ لا دَوَاءَ لَـــهُ لِلْمَرْءِ كـــــانَ صَحِيحًا صائِبَ القُحَمِ

وأمام هذا الانهيار النفسي يستحضر الشاعرُ الوَعلَ، ثيمةَ الخلودِ المقدَّسة، حيث الجبالُ، موطنُ الآلهة "مُشْمَخِرَّات، مُصَعِّدَة، شُمّ، شَعَف" وصورةَ القُوّة والصلابة والشموخ "ذُو حِيَد، صَلُود" وعناصر المطر والخِصب "جِيّ، الظَّيَّان، العُتُم"، يقول(٢)

تَاللهِ يَبْقَى عَلَى الأَيَّـامِ ذُو حِيَدٍ أَدْفَى صَلُودٌ مِنَ الأَوْعَالِ ذُو خَدمِ

يَأْوِي إِلَى مُشْمَخِرَّاتٍ مُصَعِّدَةٍ شُـــــمٍّ بِهِنَّ فُرُوعُ القَانِ والنَّشَـمِ

مِنْ فَوْقِهِ شَعَفٌ قَرٌّ وأَسْـفَلُهُ جِيٌّ تَنَطَّـقَ بِالظّـــيَّانِ والعُتُـمِ

وإذ يستحضر كلَّ ذلك فإنَّما يمهِّد للحديث عن عملية القتل المُدَنَّسة التي يقوم بها الصيّاد، وهو يترصّدُ الوَعِلَ بسهامه في الوقتِ المُقَدَّس ذاتِه الذي تطلع فيه "الزهرة". يشكِّل الصيادُ – في الوقت

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٢٢.

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٢٤_١١٢٥. تَاللهِ يَبْقَى: يريد: تالله لا يبقى، فحذف لا النافية في جواب القسم. الحِيَد في القَرْن: أي في قَرْنِه حُيود. الأدْفَى: الذي في قَرْنِه دَفى، وهو الحَدَب، وهو الذي يَنْحَنِي قَرْناه إلى ظَهْرِه. الصَّلُود: الذي يَصْلِدُ بِرِجْلِه، أي يَضْرِب بها عَلى الصَّخْرَة فَتَسْمَعُ لها صَوْتًا. مُشْمَخِرَّات: مُرْتَفِعات. القَانِ والنَّشَمِ: شَجَرَانِ تُتَّخَذ منهما القِسِيُّ العَرَبِيَّةُ. جِيٌّ: جِماع جِيَّة، وهي مناقِعُ ماءٍ. الظَّيَّان: شَجَرٌ. العُتُم: شَجَر الزّيتون البرّيّ (الجَبَلِيّ).

نفسه _ معادلًا موضوعيًّا لآلهة القحط بأدواتها المُدمِّرة لتُحوِّل الطبيعة الخِصبة أرضًا قاحلة؛ بقَتْلِها الوَعل؛ رمز "عنتر" آلهة الخِصب. فالشاعرُ هنا يُسْقِط هذه العملية على حاله مع الموت الذي يترصده هو أيضًا:(١)

مُوَكَّلٌ بِشُدُوفِ الصَّوْمِ يَنْظُرُهَا مِنَ المَغَارِبِ مَخْطُوفُ الحَشَا زَرِمُ
حَتَّى أُتِيحَ لَـــــهُ رَامٍ بِمُحْدَلَةٍ جَشْءٍ وبِيضٍ نَوَاحِيهِنَّ كَالسَّـــحَمِ
فَظَلَّ يَرْقُبُهُ حَتَّى إِذَا دَمَسَـتْ ذَاتُ العِشَاءِ بِأَسْدَافٍ مِنَ الغَسَــمِ
ثُمَّ يَنُوشُ إِذَا آدَ النَّهَـــارُ لَهُ بَعْدَ التَّرَقُّبِ مِنْ نِيــمٍ ومِنْ كَـــتَمِ

حتَّى أدركَه الصّيّادُ بسهامِه فقتَلَه؛ ليموتَ في أعلى الجبل، حيثُ مرقدُ الآلهة، صانعة المطَرِ والخِصْب:(٢)

دَلَّى يَدَيْهِ لَهُ سَـــيْرًا فَأَلْزَمَهُ نَفَّاحَةً غَيْرَ إِنْبَـــاءٍ وَلَا شَـــرَمِ
فَرَاغَ مِنْهُ بِجَنْبِ الزَّيْدِ ثُمَّ كَبَا عَلَى نَضِيٍّ خِلالَ الصَّدْرِ مُنْحَطِمِ

إنَّ الوعي الشعري يتبصّر في الفوضى المدمِّرة ليستنبط قانونها ويكشف عن جوهرها وحقيقتها المأساوية الممضّة في ألمها وقسوتها. لقد كشف الوعيُ أنَّ الإنسانَ نفسَه مشاركٌ في هذا الدّمار الذي يصيب الطبيعي "والمُقدَّس" حتى لو كان منيعًا قويًّا كالوَعل الذي يقيم في أعالي الجبال ويكتسب منها رسوّها وخلودها.(٣)

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٢٥_١١٢٧. الشُّدُوف: الشُّخُوص. الصَّوْم: شَجَرٌ يُشبه النَّاسَ. زَرِم: أَزْرَمَهُ؛ أي أنْ يقطعَ عليهِ البَوْلَ أو الحاجةَ قبلَ أنْ يُتِمَّه. المُحْدَلَة: التي غُمِزَ طائفاها حتّى اطْمَأَنَّا، وانْحِطاطٌ في المَنكِب، وهو أنْ يرتفع أحد المنكبين ويَطْمَئِنَّ الآخرُ. الجَشْءُ: القضيب الخفيف. السَّحَم: شَجَرٌ له وَرَقٌ كوَرَقِ الخِلافِ. أسداف: جمع سَدَفٍ وهي الظُّلمة. الغَسَم: اختلاط الظُّلْمَة. السَّرْطَم: الطويل. آدَ النّهار: مَالَ للزَّوال. النِيم والكَتَم: شَجَرانِ.

(٢) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٢٧. نَفَّاحَة: أي تَنْفَحُ بالدَّم. غيرَ إنباءٍ: لم يَنْبُ سَهْمُه حِينَ رَماه. ولا شَرَم: أي لم يُصِب بعضَ جِلْدِه فيَشُقَّه، ولكنّه نَفَذ حتَّى خَرَجَ من الشِّقِّ الآخر. نَضِيّ: في الأصْل هو قِدْحٌ بِغَيْر رِيشٍ ولا نَصْل، ثُمَّ صارَ كُلُّ نَضِيٍّ سَهْمًا.

(٣) هلال الجهاد، جماليات الشعر العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت ٢٠٠٧م، ص٣٥٤_٣٥٥.

فإذا كانت هذه حال الوَعِل المُقدَّس مع الموت، الوَعِل الذي اعتقدَه الإنسانُ القديم خالِدًا، فكيف هي حال الإنسان؟! فهل يقتنِي الموتُ أحدًا؟ هكذا يتساءل الشاعر في النهاية(١)

هَلِ اقْتَنَى حَدَثانُ الدَّهْرِ مِنْ أَنَسٍ كانُوا بِمَعْيَطَ لا وَخْشٍ ولا قَزَمِ

جاءت دراميّة القتل هذه في سياق رثائي، فالشاعر يرثي ذاته ووجوده الذي بدّده الدهر؛ ولذا فإنه يجعل الوعل اشتقاقًا جماليًّا من ذاتيّته التي تموت الآن وتندثر في اللامعنى. وهذا جوهر الطابع المأساوي الذي يميّز رؤية الوعي لذاته في العالم والذي يتظاهر في الوعل.(٢)

والخلاصة أنَّ الوعِلَ تجلَّى عند الإنسان القديم كائنًا مقدَّسًا ليس بصفته الحيوانية فحسب بل بما صار إليه من ارتباط وثيق – عنده – بظواهر الخِصب، فأصبحت الرابطة روحية أكثر منها مادية. فرسم الإنسانُ القديم الوَعِل بأشكالٍ مختلفة ومتعددة على الجبال، متّصلًا بالسماء والآلهة. ولقد أطلق العرب على هذا الحيوان الجبليّ الوَعِلَ؛ لِعُلُوِّ مكانِه ومكانتِه، ونسبوا بعض أماكنهم إليه، كما أطلقوا عليه "الأعصم"؛ لاعتصامه بالأماكن الشاهقة. وفي جنوب الجزيرة العربية عُرِف الوَعِلُ رمزًا من رموز آلهة القمر؛ لاعتكاف قَرْنَيْه، وهو ما يشير إلى دلالة الخِصب، كما عَرَّفُوه رمزًا للإله "المقه"، ورمزًا للإله "عم"، وللإله "سين"، وكان رمزًا مقدَّسًا للإله "عثتر" إله المطر والخِصب.

لقد ورث العربُ قبل الإسلام هذه الصورة الجماعية المتحدة لحيوان "الوَعِل"، والمعتقد فيه، ولعلّه قد تُنُوسِيَ بعضُها، واندثرَ بعضُها الآخر، لكنّ الأسطورة تُنُوقِلَت في "اللاوعي الجمعي" عبر الزمن _ وإن خفتَ الإيمانُ بها، أو قل ضعفَ إلى حدٍّ كبير _ فصدرَ الشعراء الجاهليون عن ذلك المصدر الجمعي بطقوسه الممتدة عبر الزمن؛ مِمَّا يفسِّر لنا صورة الوَعِل التي تكاد تكون متحدة في شِعْر الجاهليين، وهي صورة لا ريبَ أنها تعود إلى أسطورة الوَعِل الموغلة في القدم. فكثيرٌ من العادات والممارسات التي ما زالت تعيش في يومنا الحاضر تعود إلى طقوسٍ قديمة نُسِجَت عنها أساطير اندثرت أو تشظّت ولم يتبقَ منها سوى ثوبٍ بالٍ، وخالٍ من حرارة الإيمان.

(١) شرح أشعار الهذليين، ج٣، ص١١٣١. الوَخْش: الرُّزال. القَزَم: اللِّئام. أوردَ السّكّري قصيدة أخرى، فيها البيت الآتي: يا مَيُّ لَنْ يُعْجِزَ الأيَّامَ ذُو خَدَمٍ ... بِمُشْمَخِرٍّ بِهِ الظَّيَّانُ والآسُ. وقد نسبها مرة لـ أبي ذؤيب الهُذَلي (ج١، ص٢٢٧) ومرة أخرة إلى مالِك بن خالِدٍ الخُنَاعِيّ (ج١، ص٤٣٩). وانظر: البغدادي، عبد القادر بن عمر (هـ ١٠٩٣/ ١٦٨٢م): خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، تحقيق، عبد السلام هارون، ط٤، مكتبة الخانجي، القاهرة ٢٠٠٠م، ج٨، ص١٦٢.

(٢) جماليات الشِّعر العربي، ص٣٥٥.